الصادق النيهوم



من قصص الأطفال



مكتبة النيهوم

سلسلة القصص: (1)



الصادق النيهوم

من قصص الأطفال

مكتبة النيهوم ـ سلسلة القصص (1)



من قصص الأطفال

مكتبة النيهوم ــ سلسلة القصص (1)

الصادق النيهوم



Email: talabooks@hotmail.com

المالية ــ الجماهيرية العظمى

التوزيع الحصري خارج الجماهيرية العربية الشعبية الاشتراكية العظمى

مؤسسة الانتشار العربي



ص. ب. 113/5752 ر. ب. 2070 1103

Email: arabdiffusion@hotmail.com

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى 2002

المحتويات

(سبع حكايات ليبية مهداة إلى المواطن ك.ن[*]
البالغ من العمر ثلاث سنوات)

(*) هو كريم النيهوم ابن المؤلف.

1

عن مراكب السلطان!

كان يا ما كان..

وكانت «جالو» ميناء في سالف الأزمان، وكانت تدعى أيضاً جوهرة البحار وترتادها سفن التجار والقراصنة وتنقل إليها القوافل أحمال العاج وسن الفيل وتزدحم أسواقها بالتوابل والعبيد والصندل والخزف الصيني.

وكان كل امرىء في «جالو» يعيش مثل السلطان، ما عدا السلطان نفسه الذي أحاقت به مصيبة عجيبة، ولعنة رهيبة، جعلته لا يضع رأسه فوق الوسادة ويغمض عينيه في أي وقت من أوقات الليل أو النهار دون أن يحلم بالكلب الأسود.

وكان الكلب فظيعاً ومنتناً ومفقوء العينين وكان يتراءى للسلطان دائماً فوق التلال الرملية القاحلة التي تمتد وراء أسوار جالو ويرفع رأسه القبيح ويعوي بجنون حتى تغرق التلال في أنفاسه الكريهة، ثم ينطلق في أعقاب السلطان فيما تتدلى عيناه

المفقوءتان فوق خديه. وكان السلطان يتخلى عن نعليه ويعدو في المنام، وكان يعبر التلال الرملية القاحلة ويقفز فوق أسوار «جالو» ويتسلق عرائش العنب وأسقف البيوت ويواصل العدو إلى قصره المرمري المشرف على الميناء الذي تحوطه عشرة أسوار من الحديد. وقد تعود الكلب أن يتوقف عند السور الأول في بداية الأمر، ولكنه عاد فاخترقه في رأس السنة، ثم اخترق السور الثاني في رأس السنة التالية، فيما كان السلطان يراقبه في المنام مفتوح العينين.

ولقد حير ذلك الحلم كل فقهاء جالو.. وتواردوا على قصر السلطان واحداً بعد الآخر وكووه في رأسه وفكوا له الرصيدة وقرأوا عليه الأوراد وكتبوا له الأحجبة دون أن يتمكنوا من إنقاذ السلطان البائس الذي فقد كل رغبة في النوم وطفق يسكر طوال النهار ويترنح من الإعياء في قصره المرمري.

وفي رأس السنة الرابعة أفرط السلطان في الشراب حتى سقط على الأرض، وحلم بالكلب الأسود، وسمعه يعوي فوق التلال الرملية القاحلة ثم رآه يعبر السور الثالث. وقد صحا السلطان مصعوقاً من الرعب، واستدعى الفقي الذي كتب له آخر حجاب وقطع رأسه بنفسه ثم عاد إلى غرفته وطفق يندب سوء حظه.

* * *

في ذلك اليوم وصل إلى «جالو» اثنان من الغرباء وكان أحدهما فقياً ذائع الصيت، وكان الآخر مزارعاً أعرج، وقد دخل الفقي راكباً بغلته البيضاء من باب المدينة الغربي، ودخل المزارع من باب المدينة الشرقي والتقيا في وسط الميدان المؤدي إلى قصر السلطان المرمري. وقد توقف المزارع لكي يسأل الفقي عن

الطريق لأنه اعتقد أنه من أهالي «جالو» ولكن الفقي رأى على الفور أنه حافي القدمين وأنه يعرج حتى يلتوي عند وسطه وأنه لا يحمل شيئاً سوى جراب من النوى، وعرف أنه شحاذ غريب فصدمه بصدر بغلته البيضاء منطلقاً في عجلة إلى قصر السلطان.
وقد مثل بين يديه، ودعا له بطول العمر ثم قال له:

«اعلم يا مولاي، أنه ليس ما يعيب الحكيم سوى إمساكه عن النصيحة وبخله بالمشورة الصحيحة، على سيده ومولاه، وولي نعمته وعطاه. وقد قيل منذ سالف الأمد، إن الحكمة رأس الفضائل، وإنه ليس أمضى من السيف سوى رأي العالم الحصيف».

● وكان السلطان قد بدأ يقضم أظافره. وكان يمارس هذه العادة الرديئة أمام الغرباء دائماً إلى حد أن الديوان قرر أن يكتري له وصيفاً خاصاً ليقضم أظافر السلطان. ولكن الوصيف لم يكن حاضراً إذ ذاك، وقد قرر السلطان أن يقضم أظافره بنفسه.

وقال الفقي: «واعلم يا مولاي أنني سمعت بما اعتراك من العيش الأنكد والحلم بالكلب الأسود، ونقبت في الكتب، واطلعت على آراء السلف الصالح، والتمست مشورة الأسياد وأصحاب السر الأعظم حتى عرفت أصل الداء وموطن الدواء وإنه بإذن اللّه يا مولاي، على يدي شفاؤك، وخيرك وهناؤك».

وتوقف السلطان عن قضم أظافره وقال في إعياء: «يا جناب العالم، والفقي الكامل، أنا سمعت هذا الكلام ألف مرة، وقطعت رأس ألف فقي، حتى تعبت من السماع ومن قطع الرؤوس، فلا تدع الشيطان يخدعك. إنك إذا كويتني في رأسي بدون فائدة، فأنا أيضاً سوف أقطع رأسك». وركع الفقي بين

يدي السلطان وقال على الفور: «ليس كل ما يلمع ذهباً يا مولاي، وليس كل من لبس عمامة يتطاول لشفاء الملوك، وأنا لم أقطع الفيافي والقفار، من أقصى مملكة زنجبار، لكي أكويك في رأسك، لقد جئت فقط لأمنحك النصيحة والمشورة المليحة، إن الكلب الأسود الذي تراه في حلمك يا مولاي هو نذير الدمار بعثه إليك الواحد القهار، لكي ينذرك من المصيبة القادمة في ضمير الغيب».

● وانحنى السلطان إلى الأمام وتساءل بدهشة أية مصيبة؟

وبقي الفقي مطرقاً لبرهة من الوقت ثم رفع رأسه وقال بثبات: «اعلم يا مولاي، أننا قرأنا في كتب السلف الصالح أن «جالو» ستخرب بعد عمار، وسوف يرسل اللّه عليها ريحاً حامية تجوس بها سبعة أيام وسبع ليال، لا تتنفسها نبتة إلا ماتت في حينها، وتيبست جذورها في طينها، ولا تمر على عريشة عنب أو بستان أو حديقة تفاح، إلا تركتها قاعاً صفصفاً تذروه الرياح، ولا تمر على جدول ماء إلا نضب، ولا بيت إلا خرب، فسبحان من له الدوام».

● ووضع السلطان يده على فمه وقال بعد برهة: «ومتى يحدث ذلك يا جناب الفقي؟».

● «بعد سبع سنوات» قال الفقي في هدوء «بعد سبع سنوات، عندما يخترق الكلب الأسود داخل الأسوار ويصل إليك لكي يعضك في عقبك. إنك لن تراه سوى مرة واحدة في رأس كل سنة» وقاطعه السلطان فجأة: «مرة واحدة في رأس كل سنة؟ مرة واحدة فقط؟» وقال الفقي مؤكداً: «أجل، يا مولاي، مرة واحدة فقط لكي تتذكر تعداد السنين، وسوف يخترق السور

السابع ويصل إليك ويعضك في عقبك. إن تلك يا مولاي عضة الفقر، وصروف الدهر».

وقاطعه السلطان مرة أخرى: «وماذا تريدنا أن نفعل يا جناب الفقي؟»

فرفع الفقي يديه إلى رأسه وقبّل الأرض بين يدي السلطان ثم قال بثبات: «الرأي والحكمة لك يا مولاي».

ولكننا قرأنا في كتب السلف الصالح، وسمعنا من الأسياد وأصحاب السر الأعظم أن «جالو» بعد أن تخرب من أقصاها إلى أقصاها، يغفر لها اللّه ذنوبها وخطاياها، بفضل رجل صالح يعمر قلبه الإيمان، ليس للريح الساخنة عليه سلطان. وتعود «جالو» تعمر من جديد، وترتادها القوافل وتزدحم أسواقها بالعبيد والتوابل. والرأي يا مولاي، أن تعد لنفسك ولرعيتك وجندك ألف مركب مجهز بما تحتاجون إليه، فإذا حلّت النكبة، وجاء أمر اللّه، حملتم معكم أمتعتكم وممتلكاتكم وأقلعتم في عرض البحر، بعيداً عن الريح والحر، حتى تمر أيام النحس، ومحنة القبلي والبؤس، ثم تعودون إلى مدينتكم، وتعمرونها من جديد، وتعيدون إليها مجدها التليد».

وسأله السلطان بلهفة: «والرجل الصالح، يا جناب الفقي، الرجل الذي قلت إنه يعمر قلبه الإيمان وليس للريح الساخنة عليه سلطان، أين هو الآن؟».

فأطرق الفقي برأسه في تواضع برهة من الوقت، ثم قال بصوت هادىء النبرات: «لقد قرأنا يا مولاي في كتب السلف الصالح، وسمعنا من الأسياد وأصحاب السر الأعظم، أنه يصل إلى «جالو» قبل النكبة بسبع سنين. فانظر أنت بحكمتك من

ذلك يكون». وفهم السلطان إشارة الفقي، وفهم أنه الرجل الصالح بلحمه ودمه، ولكنه لم يشأ أن يقول له ذلك قبل أن يختبر صحة أقواله، وقد ذهب السلطان على الفور إلى فراشه، وأوصى وصيفه لكي يوقظه إذا رأى أنه بدأ يحلم بالكلب الأسود. ولكن السلطان لم يحلم بالكلب الأسود، وقد نام في ذلك اليوم ملء جفنيه، ونام بقية اليوم التالي، وعندما صحا في نهاية المطاف استدعى الفقي على الفور واحتضنه بين ذراعيه، وقبّله بين عينيه دليل الرضاء وزوجه ابنته وأجلسه على النطع بجانبه، ثم أعلن لأهالي «جالو» الخبر، وطلب منهم البدء في العمل لبناء المراكب.

● هذا ما كان من أمر الغريب الذي دخل جالو من الباب الغربي راكباً بغلته البيضاء.

* * *

● أما الغريب الأعرج الذي يحمل جراب النوى فقد ظل ملقى في وسط الميدان حتى آخر النهار بعد أن صدمه الفقي بصدر بغلته، ثم نهض متحاملاً على نفسه وجمع النوى الذي تبعثر فوق الأرض، وبصق على أهل جالو، وانطلق يعرج إلى التلال الرملية القاحلة.

وقد وصلها خلال الليل ولكنه لم يشأ أن ينام، بل شرع على الفور يحفر الرمل بأظافره ويدس النوى في الحفر، ويحمل لها الماء في كفيه من البئر. ثم حفر بئراً آخر في صباح اليوم التالي، وصنع لنفسه دلواً من جرابه وانطلق يحمل فيه الماء إلى مشاتل نخلاته التي ما تزال مجرد نوى متيبس في الرمل. وقد سمع الغريب الأعرج في ذلك اليوم بأمر السلطان، ورأى أهالي جالو

من فوق تلته الرملية يجرون في كل اتجاه ويحملون ألواح الخشب وأدوات النجارة، وقطع القماش المعدة لصناعة الأشرعة ويعملون في بناء المراكب، ولكنه لم يذهب للعمل معهم مخالفاً بذلك أمر السلطان.

ووصل خبره إلى أمير الحرس الذي لم يسمع قط بأن أحداً من سكان جالو يستطيع أن يخالف أمر السلطان، وقد ركب مع مائة فارس من أفضل جنوده وانطلقوا إلى التلال الرملية القاحلة ونزعوا قميص الغريب الأعرج وجلدوه مائة جلدة ثم طلبوا منه أن يستعد للعودة إلى جالو لكي يعمل في مراكب السلطان، ولكن الغريب الأعرج لبس قميصه وعاد يحمل الماء من البئر ويدلقه فوق مشاتل نخلاته.

● وفي اليوم التالي زاره أمير الحرس مرة أخرى وجلده مائة جلدة وطلب منه أن يعود إلى جالو لكي يعمل في مراكب السلطان، ولكن الغريب الأعرج لبس قميصه وانطلق يحمل الماء من البئر ويدلقه فوق مشاتل نخلاته.

وفي اليوم الثالث زاره أمير الحرس وأمسكه من خناقه وقال له بغضب هائل: «أنا سأضطر لقتلك أيها الغريب الأعرج. ما الذي يدعوك إلى مخالفة أمر السلطان».

وقال الغريب الأعرج: «لا أريد أن أعمل في مراكب السلطان يا أمير الحرس. إنني مزارع فقط. أعني أنا لا أعرف مهنة أخرى سوى زراعة النخل يا أمير الحرس».

وتبادل الجنود النظرات فيما فتح أمير الحرس ذراعيه وسأله بدهشة «وما هو النخل أيها الغريب الأعرج؟».

وكان الناس في جالو لا يعرفون النخل. وكانوا لم يروا نخلة

في حياتهم. وكانت جالو من أقصاها إلى أقصاها لا تضم نخلة واحدة.

وأطرق الغريب الأعرج برهة ثم رفع رأسه وأغمض عينيه من وهج الشمس وقال بتردد: «النخل يا أمير الحرس عرائس أقراطها ياقوت، وتيجانها زمرد تخرج من باطن الأرض، وترفع قاماتها في السحاب، لكي يراها العطشان فيرتوي، والتائه فيهتدي».

وضحك الجنود حتى كادوا أن يقعوا من سروجهم، وهز أمير الحرس رأسه وشرع يراقب الغريب الأعرج الذي انطلق يحمل الماء من البئر ويدلقه في الرمال، ثم أدار جواده في اتجاه «جالو» وقال لرجاله: «دعونا من هذا الخنزير المعتوه. إنه مملوك من أحد الشياطين وليس ثمة فائدة من حرق جلده بالسوط».

وكان أمير الحرس قد تذكر لتوه أنه جلد ذات مرة رجلاً مملوكاً، فمات ولده في اليوم التالي.

* * *

● ومرت السنة الأولى والناس في «جالو» يعملون في بناء المراكب، ثم مرت السنة الثانية والعمل لم ينته بعد، واضطر السلطان إلى إحضار مزيد من العمال، وأهملت البساتين وعرائش العنب، وأقفل التجار حوانيتهم للعمل في مراكب السلطان. وكان الفقي يشرف بنفسه على سير العمل، وكان يشجع النجارين ويقرأ لهم آيات من سورة نوح.

ومرت السنة الثالثة ثم الرابعة، ونهضت المراكب واحدة بعد الأخرى على طول ميناء جالو، وشرع الناس يحضرون للفرجة عليها في المساء. وكان الغريب الأعرج يحضر للفرجة عليها أيضاً ولكنه لم يكن يحب أحجامها الهائلة، وكان يقضي أغلب

أوقاته فوق التلال الرملية القاحلة التي لم يجد بها سوى بئر واحد. وكان يحضر منه الماء طوال الوقت في الدلو الذي صنعه من جرابه القديم ويدلقه في مشاتل نخلاته، وكانت النخلات قد بدأت ترتفع من الأرض وتنهض بقامتها الفارهة فوق التلال، ولكن أحداً من أهل جالو لم يرها لأن الناس ظلوا مشغولين بمراكب السلطان.

ومرت السنة الخامسة ثم مرت السنة السادسة ونهض مزيد من المراكب في ميناء جالو، ورزق الفقي بستة أولاد من ابنة السلطان.

وفي نهاية السنة السابعة رزق الفقي بولد آخر، وحلم السلطان بالكلب الأسود ورآه يخترق آخر سور وينطلق وراءه مفقوء العينين لكي يعضه في عقبه بنابه المسموم، وقد صرخ السلطان في المنام وفتح عينيه مذعوراً واستدعى الفقي على الفور الذي أعطى إشارة بدء الرحلة. وفي المساء خرجت المراكب مسرعة من ميناء جالو، ونشرت أشرعتها في الفضاء الأزرق مثل ألف صقر أبيض الجناح، فيما وقف الغريب الأعرج يراقبها مشدوهاً فوق تلته الرملية. وكان قد بقي وحده في «جالو».

* * *

فليسمع الأطفال.. ليسمع الرجال الصغار الواقفون فوق كل تلة رملية قاحلة لكي يشاهدوا مراكب السلطان.

لقد جاءت الريح الحامية ـ كما قال الفقي، وجاست في شوارع «جالو» سبعة أيام وسبع ليال ـ كما قال الفقي ـ لم تمر على عريشة عنب أو بستان أو حديقة تفاح، إلا تركتها قاعاً صفصفاً تذروه الرياح ـ كما قال الفقي، ولم تمر على جدول ماء

إلا نضب ـ كما قال الفقي ـ وقد نضب البحر أيضاً وانحسر عن جالو. وأقعت مراكب السلطان فوق الرمال.

فليسمع الأطفال.

لقد هدأت الريح بعد سبعة أيام وسبع ليال ـ كما قال الفقي ـ وخربت جالو من أقصاها إلى أقصاها ثم غفر لها اللّه ذنوبها وخطاياها ـ كما قال الفقي ـ وعادت ترتادها القوافل وتزدحم أسواقها بالعبيد والتوابل ـ كما قال الفقي ـ.

ولكن السلطان لم يعد، لأن المراكب لا تبحر في الرمال، ولأنك إذا أدرت ظهرك لجالو، فإن جالو ستدير لك ظهرها.

2

عن بائع الملح الطيب القلب!

.. ثم كان يا ما كان.

وكان في مدينة بنغازي زنجي عظيم طويل القامة يطوف الأزقة بأكياس الملح، ويضع الأحياء القديمة كل يوم وراء حماره المحمل أصبعه في أذنه، وينادي بصوته الجهوري ملح.. ملح.

وكان الناس في بنغازي يدعونه «عبد الملح»، وكان الأطفال يرهبون رؤيته ويلاحقونه بعيونهم في صمت عندما يلوح بقامته المديدة ويخترق الأزقة متمايلاً وراء حماره مثل نخلة هائلة الارتفاع والرسوخ، ولكن الزنجي كان يحب الأطفال، وكان يطلع لهم لسانه الشديد الحمرة ويصدر به صوتاً يشبه نقيق الضفدعة حتى يغرق الأطفال في الضحك.

كان الزنجي يحضر كل يوم عشرة أرطال من الملح كل رطل داخل كيس صغير أبيض مغلق بإحكام، وكان يضعها على جانبي حماره ويطوف بها أزقة الأحياء القديمة حتى يبيعها جميعها ثم يتوقف عند سوق الخضار ويشتري خمسة أرغفة من

دقيق القمح وربطتين من الفجل ويضعهما في جرابه ويطلع لسانه الشديد الحمرة ويصدر به صوتاً يشبه نقيق الضفدعة.

وكان الزنجي يعود إلى بيته في الصابري متمايلاً مثل نخلة هائلة الارتفاع والرسوخ، ويدلق أرغفة العيش وربطتي الفجل أمام زوجته ويأكل معها ويحدثها عن أزقة المدينة القديمة وأسعار الملح وسوق الخضار، ولكن زوجته لم تكن تحب أحاديثه. وقد تعودت أن تقول له إنها تعبت من الفقر وحكايات باعة الملح، وإنها تتمنى لو سخر قوته التي تفوق قوة البغل في البحث عن حرفة أخرى. وكانت تقرعه كل يوم، وتعيره بأخيه الذي أصبح أعظم مصارع في ديوان السلطان. وكانت تقول له إنه مجرد بغل أسود يجر أحمال الملح.

وكان الزنجي يطرق برأسه في الأرض ويلتزم الصمت حتى تفرغ امرأته غضبها، ثم يرفع رأسه ويقول في هدوء: «يا امرأة، إن الملح أيضاً نعمة من اللّه. وأنا لا أريد أن أكسب عيشي بالمصارعة في ديوان السلطان. إن الخبز لا يطهره سوى العرق».

وكان الزنجي بعد ذلك يربت على كتف زوجته ويحدق في الفراغ ثم يتوسد ذراعه العظيم وينام لبعض الوقت ريثما يحل المساء. وكان يخرج إذ ذاك إلى حقل الملح الممتد على جانب الطريق العام، ويعبىء أكياسه الصغيرة البيضاء ويغلقها بإحكام ويضعها في السقيفة لكي يسرح بها في الصباح.

* * *

وفي ذات مرة خرج الزنجي كعادته إلى حقل الملح بعد أن تشاجرت معه امرأته وظلت تقرعه طوال النهار، وكان المساء الممطر قد بدأ يرخي سدوله على المنطقة، وكان الزنجي لا يحب

المطر لأنه يبعثر أكوام الملح، وقد بدأ يصر على أسنانه ويحدث نفسه بصوت عال عندما رفع رأسه فجأة ورأى جنياً مديد القامة مدبب القرون والأظافر يقف على كوم الملح.

وتوقف الزنجي برهة ثم تمالك نفسه وقال بهدوء: «الملح لا يدوسه المرء بقدميه، أيها الجني، إنه نعمة من اللّه».

ووضع الجني يديه في وسطه وضحك حتى انحنى إلى الوراء ثم قال بصوته العميق الذي يشبه الرعد: «أيها الزنجي.. أيها الزنجي.. أنا جئت لكي أتحداك للصراع، ولكنك تكاد أن تقتلني بالضحك. إن الملح الذي يحرق الحلق ليس نعمة من اللّه. اللؤلؤ، أيها الزنجي، نعمة من اللّه. اللؤلؤ النبيل الذي يشبه بلورات الملح نعمة من الله. فهل تحب أن تصارعني مقابل حفنة من اللؤلؤ؟».

وأطرق الزنجي برأسه وقال في هدوء: «أنا لست مصارعاً. أنا رجل يبيع الملح».

وضحك الجني مرة أخرى حتى انحنى إلى الوراء ثم قال بصوته العميق الذي يشبه الرعد: «أيها الزنجي.. أيها الزنجي أنت تكاد أن تقتلني بالضحك. إن بغلاً هائلاً مثلك لا يسخر قوته في بيع الملح وحده. تقدم لمصارعتي، وإذا وضعتني على الأرض، فسوف أعبىء لك أكياسك العشرة باللؤلؤ».

ورفع الزنجي رأسه وقال مرة أخرى: «وماذا أفعل باللؤلؤ.. أنا رجل يبيع الملح».

ثم انحنى في هدوء وشرع يعبىء أكياسه حتى امتلأت ثم رفعها على ظهر حماره وانطلق عائداً إلى بيته فيما كانت النجمات الصغيرة الباهتة تلوح في عتمة الليل الممطر.

في تلك الليلة ظل الزنجي يتقلب في فراشه مفتوح العينين فيما كانت امرأته تغط في النوم بجانبه. وقد مدّ يده في الظلام ووضعها فوق كتفها وقال بصوت عال: «لعل الملح ليس نعمة من اللّه. لعله مجرد ملح فقط، وأنا زنجي جبان مضحك» ثم عاد فانكفأ على وجهه ودفن يديه تحت الوسادة وحلم بالجني وسمعه يقول له بصوته العميق الذي يشبه الرعد: «أنت تكاد أن تقتلني بالضحك. إن بغلاً هائلاً مثلك لا يسخّر قوته في بيع الملح وحده». وقد فتح الزنجي عينيه ورفع رأسه لينظر إلى زوجته ثم قال بصوت عال: «الملح نعمة من اللّه.. إنه مثل القمح نفسه نعمة من اللّه». وعند الفجر كان الزنجي قد نام منكفئاً على وجهه، وكان قد شرع يحلم بالأكياس الصغيرة البيضاء المعبأة باللؤلؤ وبالقمر الفضي فوق حقل الملح، وقد حلم بأخيه الذي أصبح أعظم مصارع في ديوان السلطان ورآه يقف بقامته العظيمة فوق حقل الملح، ثم رأى حزامه الجلدي المزين بمسامير الذهب وسمعه يقول للجني بصوته الهادىء النبرات «تقدم أيها الجني المبارك. أنا أقبل أن أصارعك. إن أخي مجرد بغل يجر أحمال الملح، ولكني مصارع في ديوان السلطان»، ثم حلم الزنجي بالمصارعة ورفع رأسه في المنام وصاح بصوت عال مخاطباً أخاه «لا تدعه يمسكك من عنقك. ادفعه إلى الوراء، إن كوم الملح خلفه مباشرة».

في تلك اللحظة أحس الزنجي بركلة في ظهره ثم فتح عينيه ورأى امرأته تقف غاضبة فوق رأسه، وقد ركلته مرة أخرى، وقالت له: إن الشمس قد وصلت إلى منتصف الحائط، ثم شرعت تعيره بكسله وتندب سوء حظها، ولكن الزنجي لم يقل لها شيئاً إذ ذاك، ولم يقل لها شيئاً أيضاً عندما عاد بعد أن باع

حمله من الملح. لقد ظلّ صامتاً على غير عادته، وظل يمضغ كسرة الخبز شارد البال. وعندما توسد ذراعه العظيم ونام في ظل الجدار فتح عينيه في المنام وقال بصوت عال: «لا تدعه يمسكك من عنقك. ادفعه إلى الوراء، إن كوم الملح خلفه مباشرة».

في ذلك اليوم انحنت النجمات الصغيرة الباهتة عبر عتمة المساء الممطر ورأت الزنجي يعبر حقل الملح ثم يجلس فوق أحد الأكوام دون أن يعبىء شيئاً منه في أكياسه الصغيرة البيضاء. ثم رأت الجني المدبب القرون والأظافر يظهر فجأة بجانبه. وسمعتهما يتحدثان بصوت عال، ثم دفنت النجمات الصغيرة الباهتة رؤوسها في السحب وانطلقت مذعورة بعيداً عن حقل الملح فقد كان الزنجي والجني قد بدءا يتصارعان مثل ضبعين مجنونين.

وقد التحما فوق الساحة البيضاء المغطاة ببلورات الملح وطفقا يتمايلان في عتمة المساء الممطر مثل نخلتين سامقتين تتناطحان في قبضة العاصفة. وقد تصارعا طوال الليل وحفرا الأرض بأقدامهما وأحدثا في حقل الملح ثقوباً هائلة بعيدة الغور ومزقا جلديهما مثل ضبعين مجنونين، ولكن أحداً منهما لم يصرع الآخر حتى لاحت تباشير الفجر.

عندئذٍ قال الجني: «أيها الزنجي، نحن سنفترق الآن لأنني لا أستطيع أن أغيب عن مملكتي خلال النهار، فتعال إلى هنا غداً».

وفي لمحة عين اختفى الجني في السماء، وتابعه الزنجي بعينيه لاهث الأنفاس ثم استدار ببطء وانطلق عائداً إلى بيته دون أن يضع شيئاً من الملح في أكياسه البيضاء. وكان متعباً إلى حد الإعياء، وكان ظهره متيبساً مثل لوح من الخشب، وقد مشى

مطرق الرأس وجرّ قدميه في بطء حتى وصل إلى بيته فارتمى فوق فراشه وغاب على الفور في سبات عميق.

ولأول مرة خلت بنغازي من نداء بائع الملح. ولأول مرة نهضت امرأة الزنجي في الصباح ووجدت أكياس الملح التي أعدتها في اليوم السابق ما تزال فارغة. وقد انطلقت غاضبة إلى فراش زوجها وطفقت تركله في ظهره وتصرخ بأعلى صوتها لكي توقظه ثم شرعت تعيره بالسكر وتسكب الماء فوق رأسه وتندب سوء حظها. ولكن الزنجي لم يستيقظ.

وقد نام طوال النهار، وحلم بالجني واللؤلؤ، ورأى القمر الفضي يطلع على حقل الملح. وعندما نهض قبيل المساء كان منتعشاً ونشيطاً ولكنه كان يتضور جوعاً ولم يكن في البيت ثمة ما يأكله. فقد خلا البيت - لأول مرة أيضاً - من أرغفة العيش وربطتي الفجل.

وأحست المرأة أن زوجها قد استيقظ فجاءت إليه على الفور وطفقت تقرعه من جديد، وتعيره بأخيه الذي أصبح مصارعاً في ديوان السلطان، ثم قالت له إنها تعرف أنه ذهب لكي يسكر طوال الليل. ولكن الزنجي لم يقل لها شيئاً. وقد ظل صامتاً واضعاً ذراعه العظيم فوق عينيه، وظل ينظر في السماء. وعندما حان الوقت أخذ حماره وانطلق عبر حقل الملح فيما كان المساء الممطر يرخي سدوله على المنطقة.

ومرة أخرى ظهر الجني المدبب القرون والأظافر، ومرة أخرى التحم المخلوقان الهائلان فوق الساحة البيضاء المغطاة ببلورات الملح، وطفقا يتمايلان في عتمة المساء الممطر مثل نخلتين سامقتين تتناطحان في قبضة العاصفة. وقد أفرغ الزنجي جهداً

هائلاً في بداية الليلة ولف ذراعيه العظيمتين حول خاصرة خصمه وشرع يثنيه بثبات حتى أرغمه على أن ينحني فجأة ويركع على ركبتيه، ولكن الجني ما لبث أن استعاد توازنه وشرع ينهض باتصال معتمداً على قوة كتفيه ثم لف ذراعه حول عنق الزنجي وأخذ يعصره بضراوة. وعند منتصف الليل كان الزنجي قد بدأ يختنق، وقد غامت عيناه وراء ستار من الضوء المبلول الأسود وبدأت ساقاه تخذلانه في بطء، فيما شرع الجني الخارق الضخامة يتكىء عليه بثقله مثل جبل من النحاس. وأغمض الزنجي عينيه وعاد يفرغ جهداً نهائياً هائلاً لكي يحرر نفسه من ذلك الثقل، وقد أحس فجأة أنه يريد أن يرخي قبضته ويسقط على الأرض، وأحس بأن رئتيه قد تيبستا داخل صدره مثل جرابين قديمين وعندما بدأت ساقه اليمنى تخذله كلية قال في ذات نفسه «ليس ثمة فائدة. إنه سيطرحني على الأرض. أنا لست مصارعاً في ديوان السلطان. أنا مجرد زنجي بليد مضحك».

في تلك اللحظة أرخى الجني قبضته وقال لاهث الأنفاس: «أيها الزنجي.. أيها الزنجي.. نحن سنفترق الآن لأنني لا أستطيع أن أغيب عن مملكتي خلال النهار.. فتعال إلى هنا غداً».

وفتح الزنجي عينيه المحروقتين بالعرق وملأ رئتيه من الهواء ثم رأى أضواء الفجر الخافتة تلوح عبر الأفق في حقل الملح، ورأى الطيور البيضاء وخيوط المطر الصباحي الناعمة الملمس واستدار في بطء متجهاً إلى بيته فيما كانت ذراعاه تتدليان إلى جانبه.

وكان حماره يتبعه بأكياس الملح الفارغة، وكان الزنجي متعباً إلى حد الغثيان. وقد مشى على وجهه من فرط التعب وجر

قدميه المتيبستين محتملاً ألماً صاعقاً حتى وصل إلى بيته فسقط فوق فراشه وأحس بدبيب الموت يسري في عظامه مثل عروق ثلجية من الفولاذ.

ومرة أخرى خلت بنغازي من نداء عبد الملح ومرة أخرى نهضت امرأة الزنجي في الصباح ووجدت أكياس الملح التي أعدتها منذ يومين ما تزال فارغة، وقد أعماها الغضب حتى أنها رمت نفسها فوق جثة زوجها وطفقت تمزق جلده بأظافرها، ولكن الزنجي كان ميتاً مثل صخرة في أعماق كهف جبلي. وقد ظل نائماً طوال النهار، وظل منكفئاً على وجهه دون أن يتحرك مرة واحدة.

وعندما استيقظ في نهاية المطاف كان منتعشاً ولكنه كان جائعاً إلى حد لا يصدق، وقد جاءته امرأته على الفور وبصقت فوق وجهه ثم جلست بجانبه وطفقت تندب سوء حظها. ولكن الزنجي لم يقل لها شيئاً وقد ظل صامتاً واضعاً ذراعه العظيم فوق عينيه، وظل ينظر في السماء. وعندما حان الوقت أخذ حماره وانطلق عبر حقل الملح فيما كان المساء الممطر يرخي سدوله على المنطقة.

وفي الحال ظهر الجني المدبب القرون والأظافر وفي الحال التحم مع الزنجي فوق الساحة البيضاء المغطاة ببلورات الملح، ووضع ذراعيه العظيمتين حول خاصرته وشرع يعصره مفرغاً كل جهده لكي يجعله ينحني إلى الوراء. ولكن الزنجي كان مرهقاً للغاية، وكان جائعاً إلى حد لا يصدق، وقد ظلت ذراعاه متيبستين خاليتين من الحياة. وعندما بدأت ساقه اليمنى تخذله قبل منتصف الليل قال في ذات نفسه «الوقت ما يزال مبكراً،

ولكنها تخذلني منذ الآن.. كم أتمنى لو أن لدي ساقاً أفضل».

في اللحظة التالية رفع الجني ذراعيه وشرع يهبط بثقله فوقه معتمداً على كتفيه، وقد هبط ببطء وباتصال مثل سحابة من النحاس المسبوك فيما بدأ الزنجي يغوص في اتجاه الأرض حتى ركع على ركبتيه وطفق ينحني إلى الوراء.

إذ ذاك فتح الزنجي عينيه المحترقتين بالعرق ورأى كوم الملح. لقد كان كوماً صغيراً فضياً يلمع في ضوء النجوم الشاحبة، وكان الزنجي قد رفعه من البحيرة في الصيف الماضي لكي يبيعه في الشتاء.

وقد نظر إليه فيما كان يغوص في اتجاه الأرض منهاراً تحت ثقل خصمه العظيم، وسمع أحداً ما يقول له ـ لقد كان صوتاً صادراً من كوم الملح ـ ولكنه كان صوتاً مألوفاً لديه، وقد سمعه يقول له: «لا تدعه يمسك عنقك. ادفعه إلى الوراء.. إن كوم الملح خلفه مباشرة».

وفي لحظة هائلة، عامرة بالأصوات والأضواء، أحس الزنجي أنه لم يعد يغوص في اتجاه الأرض. ثم أحس أنه ينحني إلى الأمام خلال موجة هائلة الثقل، ورأى ذراعيه السوداوين العظيمتين ترتفعان في الهواء مثل جناحين خرافيين، ثم رأى الجني يندفع فجأة إلى الوراء ويهوي عبر كوم مطلقاً صرخة مفجعة.

وأخرجت النجمات الصغيرة الباهتة رؤوسها من وراء السحب وطفقت تراقب حقل الملح مشدوهة، وقد رأت الجني يرفع قامته من الأرض ويشير إلى كوم الملح، ثم رأته يربت على كتف الزنجي ويعبىء له أكياسه البيضاء ويختفي في لمحة عين.

وكان الزنجي ما يزال واقفاً عند كوم الملح كأنه يتحدث معه،

وكان يترنح في وقفته مثل نخلة قديمة على وشك السقوط، وقد ظل يترنح عندما عبر حقل الملح، فيما كان حماره يتبعه محملاً بالأكياس البيضاء.

في الصباح شهد سكان الأحياء القديمة في بنغازي منظراً فريداً.. ولقد كانت امرأة الزنجي الغاضبة تجر وراءها الحمار وتصرخ بإعياء ملح.. ملح.

ولكن الناس الذين اشتروا أكياس الملح في ذلك اليوم انتقلوا جميعاً من الأحياء القديمة.

فماذا أقول لكم إن الطموح يستطيع أحياناً أن يحيل الملح إلى لؤلؤ، ولكن الإيمان وحده يستطيع أن يبيعه.

3

عن أحسن لص في المملكة!

من القصص غير المعقولة التي ترويها العجائز في بنغازي أنه لما مرض شيخ اللصوص، وأحس بدنو الأجل، جمع لصوص المملكة من أدناها إلى أقصاها حول فراشه، ودعاهم إلى قراءة الفاتحة، ثم قال لهم، وهو يعبث بطرف عمامته: «اعلموا يا أولادي، أن الموت نهاية كل حي، وأنه ليس باقياً إلا وجه اللّه، وأنا عجوز وهن عظمه، وأحنى الدهر ظهره، بلا الدنيا بحلوها ومرها، ولم يعد يرجو منها سوى خير الثواب، وحسن المآب. وقد رأيت أن أذهب إلى مكة هذا العام، وأغسل جثتي من الذنوب والآثام قبل أن يفوتني القطار، ويقطع علي الموت طريق الأبرار، لكني أخاف أن تتفرق بكم السبل بعدي وتتشتت بكم المذاهب، لأنه ـ كما قيل منذ سالف الأمد ـ الرعية بدون راع، مثل الغنم بدون كلب. لذا قررت أن أجمعكم هنا لكي تختاروا من بينكم شيخاً، أقلده الأمر بعدي ويتولى منصبي وعهدي. فما قولكم أيها اللصوص؟».

هزّ اللصوص رؤوسهم وقالوا في صوت واحد: «يا شيخنا، لا تذهب إلى مكة، ولا تلق بنفسك في التهلكة. يا شيخنا إن اللّه يستطيع أن يغفر لك ذنوبك في بنغازي أيضاً. يا شيخنا إن القدر يريد أن يستدرجك إلى مكة لكي يقطع الوالي يدك».

ولكن اللص العجوز أشار لهم بيده لكي يلتزموا الصمت، ثم أخبرهم بهدوء أن الأمر ليس من شأنهم وأنه يفضل أن يذهب إلى الجنة بيد واحدة على أن يذهب إلى النار بيديه معاً، ثم دعاهم مرة أخرى إلى أن ينتخبوا من بينهم شيخاً لهم.

حسناً، تقول العجائز في بنغازي، لقد تناقش اللصوص في الأمر طوال النهار، ثم تناقشوا طوال الليل وظهرت بينهم الخلافات، وأصر كل واحد منهم على أنه أفضل من يصلح لولاية العهد، وأنه أكثر براعة وحنكة من سواه. وفي اليوم التالي كان اللصوص قد تشابكوا بالأيدي، وكانت أصواتهم قد بدأت تعلو حتى وصلت مسامع الجيران، واضطر الشيخ إلى أن يشير لهم بيده لكي يلتزموا الصمت، ثم قال لهم وهو يعبث بطرف عمامته: «يا أولادي، المرء لا يركب لسانه، كما يركب حصانه، إلا إذا أراد أن يسمعه السلطان. وقد قيل منذ سالف الأمد إن اللص العاقل يتكلم بأصابعه، ويدعي الخرس بلسانه. وما دامت «الميه تكذب الغطاس» فأنا أقول لكم إن الكلام لن يذهب الخصام، وإنه ليس ثمة مفر من أن أعرضكم جميعاً للامتحان، حيث يكرم المرء أو يهان. فاسمعوا ما أقوله لكم، إن من يستطع منكم أن يسرق الياقوتة الشهيرة التي تزين تاج السلطان هو ولي عهدي، وصاحب الأمر بعدي».

وقد هلل جميع اللصوص لهذا الاقتراح تقول العجائز في

بنغازي، وقبلوه عن طيب خاطر. ولكن الدخول إلى قصر السلطان لم يكن أمراً هيناً وقد اعتراهم الصمت فجأة، وأداروا أعناقهم في اتجاه الشيخ، وشرعوا يحكون رؤوسهم.

حسناً، تقول العجائز في بنغازي، لقد أشار إليهم الشيخ بيده، وتفحصهم واحداً بعد الآخر في هدوء، ثم قال لهم وهو يعبث بطرف عمامته: «يا أولادي، الدخول إلى قصر السلطان أمر يسهل على العقل المدبر، والدماغ المفكر، وقد قيل منذ سالف الأمد، إن اللّه عندما خلق الأبواب، خلق الشيطان النافذة، وأنا بلغني أن السلطان الطيب القلب يقيم الحضرة كل ليلة جمعة، ويدعو إليها إحدى زوايا المدينة، التماساً للبركة، وحباً للخير، فإذا قمتم أنتم أيضاً بإنشاء زاوية، فإن السلطان الطيب القلب سيدعوكم إلى قصره عندما يحين دوركم لأنه كما قيل منذ سالف الأمد إذا كنت لا تستطيع أن تدخل قصر السلطان في ثياب لص، فانتظر دورك لكي تدخله في ثياب درويش». وقد هلّل جميع اللصوص لهذا الاقتراح وانطلقوا على الفور في إعداد لوازم الزاوية، وذهبوا في نفس اليوم إلى سوق الظلام وسرقوا القماش الأخضر المطلوب لعمل الجبب والعمائم، وسرقوا الدفوف والصاجات والمباخر أيضاً وخرجوا رافعين أعلام الزاوية في شوارع بنغازي حيث استقبلتهم النساء بالزغاريد.

حسناً، تقول العجائز في بنغازي، لقد سمع السلطان الطيب القلب بالزاوية، وأمر بإلحاقها في سجل الديوان مثل بقية الزوايا، وعندما جاء دورها دعا اللصوص إلى قصره، وتركهم يبصقون فوق رأسه التماساً للبركة، وطلباً للخير، لأن السلطان الطيب القلب كان يحب بصاق العيساوية، وكان يعتقد أنه يغسل الجثة من أدران

الشيطان. وقد جلس في وسطهم لابساً تاجه المرصّع بالياقوتة الشهيرة وشرع يفرد حبات مسبحته، فيما مدح اللصوص حوله، ودقوا فوق رأسه بالدفوف، ودعوا له بالسعادة وطول العمر. وعند منتصف الليل انقلب أحدهم إلى سبع في وسط الحلقة وطفق يقفز بضراوة ويخبط بيديه في الهواء متجهاً إلى عمامة السلطان ولكن لصاً آخر اختار الطريق الأقصر ورمى حفنة من البخور في النار ثم التقط المبخرة وشرع يطوف بها حول السلطان داخل سحابة الدخان المتصاعد وقد التقط الياقوتة في لمح البصر وواصل الدوار بالمبخرة فيما كانت يده تتجه في العتمة لكي تضع الياقوتة في جيب جبته. ولكنه كان لصاً حديث العهد بالحرفة، وكان قد نسي أن السبع أيضاً يلبس جبة مماثلة، وأنه يستطيع أن يقف وراءه ويترك الياقوتة تسقط في جيبه رغم انشغاله بالزئير.

حسناً، تقول العجائز في بنغازي، لقد كان اللص المدعو «حسن البصري» يراقب هذه اللعبة المشينة من وراء الدف، وقد رأى كل شيء بالتفصيل، وغلبه الضحك حتى كاد أن يفتضح أمره، لأنه لجأ إلى هذه الحيلة البسيطة ذات مرة عندما بدأ يتعلم الحرفة. وقد تذكر أنه وقف بجانب زميله الذي سرق الخاتم من أصبع أحد التجار، وفتح له جيبه لكي يضع فيه الخاتم دون أن يدري. وتذكر أيضاً ـ فيما كان يدفن وجهه وراء الدف في حضرة السلطان ـ أن اللصوص الصغار الذين يلجأون إلى هذه الحيلة القديمة يذهبون عادة لإخفاء المسروقات في زير المياه القائم عند باب الجامع.

حسناً، تقول العجائز في بنغازي، لقد كان اللص المدعو «حسن البصري» لصاً قديماً واسع الخبرة، وقد وضع دفه على

الأرض بهدوء، وانسل من قصر السلطان وانطلق على الفور إلى الجامع الكبير، حيث بحث لنفسه عن ركن مظلم، وأخرج كيس المضغة، وطفق يمضغ ويبصق على الأرض في انتظار الياقوتة. ولقد جاءت الياقوتة حقاً، كما كان ينتظر بالضبط، وتسلل بها اللص الصغير في الظلام ثم نظر حوله مرتين لكي يتأكد أن أحداً لم يتبعه، وتركها تسقط في قاع الزير قائلاً في ذات نفسه: «إن الاحتفاظ بالياقوتة أصعب من نيلها. هذا وجه الحق، خصوصاً في مدينة تضم أبرع لصوص المملكة من أدناها إلى أقصاها. هذا وجه الحق. ولكن زير الجامع لن يخطر ببال أحد».

حسناً، تقول العجائز في بنغازي، لقد خطر زير الجامع ببال اللص المدعو «حسن البصري» لأنه كان لصاً قديماً واسع الخبرة، وقد خرج من مكمنه بمجرد أن اختفى زميله وراء المنعطف ووقف يضحك عند الزير حتى استلقى على قفاه، ثم أدخل يده إلى المرفق في الوعاء الذي يشرب منه المصلون وعابرو السبيل وطفق يخوض فيه حتى أطلع الياقوتة داخل كيس صغير من القماش الأبيض، وأمسكها بين أصابعه ونظر إليها في ضوء القمر، وشرع يضحك مرة أخرى عندما أعاد الكيس وحده إلى الزير وبداخله ورقة صغيرة مكتوب فيها:

علمناه الصلاة، سبقنا على الجامع

صدق المثل

إمضاء: حسن البصري

وطوال الطريق إلى ضريح سيدي المسطاري كان اللص القديم الواسع الخبرة يتوقف لكي يضحك حتى يستلقي على قفاه كلما خطرت بباله حكاية الزير، لأنه أيضاً كان قد لجأ إلى هذه الحيلة

البسيطة ذات مرة عندما بدأ يتعلم الحرفة، وخبأ في زير الجامع أسورة من الذهب دون أن يعرف أن المؤذن كان يراقبه من نافذة الخلوة. وقد تذكر اللص وجه المؤذن القبيح فيما كان ينطلق بهدوء حاملاً الياقوتة على صدره، ولوح بيده في الظلام، وبصق على الأرض ثم قال في ذات نفسه: ابتعد عن الجامع. إذا كنت تريد أن تجد مكاناً آمناً حقاً، ابتعد عن الجامع. هذا ما أقوله لك. إنني لا أريد أن أسيء إلى بيوت اللّه، ولكنها في الواقع ليست مكاناً آمناً. هذا ما أقوله لك. إن الخلوة لا بد أن تضم مؤذناً ما يسارع إلى سلب ما تخبئه هناك. أو على الأقل يطالبك بأن تقسم معه. هذا ما أقوله لك. ابتعد عن الجامع، وتعلم أن تخبىء مسروقاتك في مكان آخر».

وكان اللص المدعو حسن البصري يعرف ذلك المكان الآخر، وقد ذهب على الفور إلى سيدي المسطاري، ونظر ذات اليمين وذات الشمال، حتى تأكد أن أحداً لا يراقبه، وأن الشحاذ الأعمى الذي يجلس في الركن كان غائباً في قراءة الأوراد، ثم حفر بيده وراء الضريح ووضع الياقوتة في الحفرة وغطاها بالتراب قائلاً في ذات نفسه: «الشحاذ لم ير شيئاً على أي حال، ثم إنه ليس لصاً. إن اللصوص لا يجلسون لقراءة الأوراد بجانب أضرحة الأولياء».

ولكنه كان مخطئاً في هذا الزعم، لأن قراءة الأوراد كانت في الواقع حيلة جديدة بين لصوص المملكة.

حسناً، تقول العجائز في بنغازي، لقد كان ذلك الشحاذ الأعمى هو اللص الذائع الصيت المدعو بالزناتي خليفة، وكان قد رأى كل شيء بالتفصيل، ورأى الياقوتة تسقط في جيب السبع،

وعرف أن حسن البصري سوف يذهب لانتظارها عند زير الجامع، وعرف أنه سيأتي لكي يخبئها وراء الضريح نظراً لنقص معلوماته عن آخر حيلة بين لصوص المملكة. وقد جلس في انتظاره هناك مزمعاً أن يقتل الوقت بقراءة بعض الأوراد التماساً للتوفيق. وقد نهض واقفاً على قدميه بمجرد أن اختفى زميله وراء الباب، وأزاح التراب ووقف يضحك حتى استلقى على قفاه فيما كانت الياقوتة تلمع بين أصابعه في ضوء القمر المتسرب من فوهة في السقف، ثم وقف يضحك مرة أخرى عندما ردم الحفرة بقدمه بعد أن وضع بداخلها ورقة صغيرة تقول بالحرف الواحد:

وهل يبرىء اللّه من ذي مكيدة

أو صاحب علم إلا فوقه عالم

صدق الشاعر

إمضاء: الزناتي خليفة

وطوال الطريق إلى ضريح سيدي الرفاعي كان اللص العظيم الذائع الصيت يتوقف لكي يضحك حتى يستلقي على قفاه كلما خطرت بباله حكاية الشحاذ الأعمى، فقد خسر ذات يوم حصيلة أسبوع كامل من الأساور الذهبية والعقود لأنه اعتقد أن الشحاذ الذي يجلس بجانب الضريح أعمى حقاً. وقد راقبه أول يوم بعد أن خبأ أمامه حصيلة الليلة الماضية ولكن الشحاذ لم يبد عليه أنه رأى شيئاً، ثم راقبه في اليوم الثاني واليوم الثالث أيضاً، فيما ظل الشحاذ مسنداً إلى الضريح غائباً في قراءة الأوراد. وعندما اجتمعت في الحفرة حصيلة سبعة أيام كاملة من الأساور والعقود، اختفى الشحاذ فجأة من العالم واختفى كل شيء معه أيضاً سوى ورقة صغيرة وجدها اللص المدعو بالزناتي خليفة

داخل الحفرة مكتوباً فيها بخط رديء وقح «لو اكتفيت بحصيلة ستة أيام لغلبتني، ولكن الجشع عاقبته الندم». وقد تذكر اللص وجه الشحاذ الأعمى فيما كان ينطلق بهدوء حاملاً الياقوتة على صدره، ولوح بيده في الظلام وبصق على الأرض ثم قال في ذات نفسه: «ابتعد عن الدراويش. هذا نهج السلامة إذا كنت لا تريد أن تعض بنان الندم، ابتعد عن الدراويش. هذا نهج السلامة. إنني لا أريد أن أقول شيئاً ضد خدام اللّه، ولكن المرء في الواقع لا بد أن يبتعد عنهم، إذا كنت لا تريد أن تعض بنان الندم. فالدرويش الذي ينتظرك سبعة أيام كاملة مسنداً ظهره إلى الضريح غائباً في قراءة الأوراد لأنه لا يكفيه أن يأخذ حصيلة ستة أيام، لا بد أن تبتعد عنه. هذا نهج السلامة. لا تخبىء شيئاً أمامه لا تعتمد على حظك وحده. سواء كان شحاذاً أعمى أو غير أعمى، لا تعتمد على حظك وحده. هذا نهج السلامة».

وكان اللص المدعو بالزناتي خليفة يعرف كيف يبتعد عن الدراويش، وقد ذهب على الفور إلى سيدي الرفاعي الذي لا يجلس بجانب ضريحه أحد. وفتش المكان فجوة فجوة حتى تأكد له أن أحداً منهم لم يختبىء في أي ركن، ثم رفع غطاء الضريح بهدوء، ووضع الياقوتة في حراسة الشيخ نفسه، وتسلل خارجاً دون أن يراه أحد.

حسناً، تقول العجائز في بنغازي، لقد كان اللص المدعو بالزناتي خليفة هو في الواقع اللص الوحيد الذي بدا عليه الابتهاج عندما اجتمع اللصوص في بيت شيخهم. وقد ظل يضحك طوال الوقت، ويسعل من شدة الضحك ويميل إلى الوراء ويضحك ويضحك ويضحك.

وقد عرف جميع اللصوص أنه يملك الياقوتة، وأن الشيخ سوف يضع حول عنقه القلادة وينصبه عليهم طوال حياته، لأنه حقاً أحسن لص في المملكة ولكن اللص المدعو بالزناتي خليفة هزّ لهم رأسه ثم شرع يصرخ دون أن يتوقف عن الضحك: «لقد كان نائماً تحت الضريح.. يا إلهي، لقد كان نائماً تحت الضريح.. انظروا بأنفسكم. إنه أفضل منا جميعاً». وكان اللص يحمل في يده ورقة صغيرة بيضاء وكانت تقول بالحرف الواحد:

﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.

صدق الله العظيم

إمضاء السلطان

هذا ما تقوله العجائز في بنغازي.

4

عن النسر السحري الأبيض

.. ثم كان يا ما كان.

وكان ثمة فقي ذائع الصيت في جامع الحدادة وكان يفك الرصيدة ويعلّم القرآن للأطفال ويشفي من العقم وسائر الأمراض ويكتب أحجبة المحبة. وقد تبحر في علوم الأولين واغترف من أنهار الحكمة وعرف الأوراد السبعة وخبايا مملكة الجان ولغة الطيور وضرب الرمل.

وعرف أيضاً كتاب «اللؤلؤ والمرجان في فتح المطالب بخاتم سليمان». وقد قرأ فيه ـ عندما كان يطلب العلم في الجزائر ـ عن وجود كنز مسحور تحت سور المقبرة في مدينة بنغازي، وقرأ أيضاً أن ذلك الكنز يحوي مقصورتين مليئتين باللآلىء الثمينة والحرير الهندي وأواني الذهب والفضة، ويحوي المرآة السحرية التي قال عنها الكاتب:

«اعلم يا طالب العلم، أن تلك المرآة صناعة عجيبة، وتحفة

غريبة، لا تشترى بمال، ولا يجود بمثلها الزمان. سمعنا عن شيوخنا في الجزائر، وبعض شيوخ اليهود، أنك إذا نظرت إليها، ورأيت صورتك فيها، تطلب منها أن تسحرك على هيئة طير أو حيوان، فلا تدري بها إلا وقد فعلت ذلك في الحال».

وكان الفقي قد هجر مسقط رأسه في الجزائر لكي يعيش بجوار الكنز.

وكان يزوره كل يوم بعد صلاة العصر، ويقف فوقه ويغمض عينيه في هدوء ثم يحلم بالزمردات العميقة الخضرة والجواهر المتوهجة في باطن الأرض، ويحلم بعقود الماس وصندوق اللآلىء البيضاء وتاج الأميرة الجنية المطعّم بالياقوت ويحلم بالمرآة السحرية ويمسكها بين يديه في الحلم ويقول لها بصوت عال:

«أيتها المرآة المباركة، يا بحيرة الخير والنعمة، أنا معلم صبيان، هذا ما يقال عني هنا، ويقال أيضاً في مدينة وهران، مجرد معلم صبيان، لا يساوي نصف دينار، ولا يساوي تفلة. مجرد شحاذ يكتب الأحجبة، ويطارد القمل على قميصه. فخذي هذين القدمين الحافيين واعطني جناحي نسر، أعلو بهما في سماء هذه المدينة المغرورة، وأقول لأهلها المغرورين، ارفعوا رؤوسكم يا معشر الخنازير. هذا معلم الصبيان ترونه بعيونكم ولا تناله أيديكم. ارفعوا رؤوسكم يا أولاد الكلاب ودعوني أبصق في عيونكم البلهاء لكي ينقشع عنها حجاب الجهل. خذي هذين القدمين أيتها المرآة المباركة».

وكان الفقي يغمض عينيه ويحلم بأنه يطير مثل نسر كبير أبيض.

وكان يطوق عنقه بعقود الماس ويشبك الياقوت الأحمر في

ريشاته ويضع فوق رأسه تاج الأميرة الجنية ويطير في اتجاه عين الشمس. وكان الناس في سوق «الحدادة» يقفون فاغري الأفواه ويشيرون إليه بأصابعهم ويصرخون بأعلى أصواتهم «هذا الذي كنا نظنه مجرد معلم للصبيان.. هذا صاحب السر الأعظم وحبيب اللّه» وكانت بقية الطيور تسير في ركابه وتنحني له الأشجار والتلال، وتزغرد النساء على طول المدن والقرى فيما يحوم بجناحيه الماسيين في أمواج النسيم الحريري.

ولكن الفقي لم يكن قادراً حقاً على فتح المطلب السحري.

* * *

وكان يصحو من حلمه كل يوم مكسور القلب ويضع نعله تحت ابطه ويعود منكس الرأس إلى غرفته المظلمة وراء جامع الحدادة. وكان يصلي العشاء ثم يطلع كسرة الخبز الجافة من تحت الوسادة ويمضغ في الظلام ويتذكر مرة أخرى:

«اعلم يا طالب العلم أن تلك المرآة صناعة عجيبة وتحفة غريبة لا تشترى بمال ولا يجود بمثلها الزمان. سمعنا عن شيوخنا في الجزائر وبعض شيوخ اليهود..».

وكان الفقي يتنهد كل ليلة عندما يتذكر هذا الموضع، ويكف عن المضغ ثم يتلمس جرة الماء ويشرب حتى يرتوي ويتذكر مرة أخرى:

«واعلم يا طالب العلم أن تلك المرآة مدفونة باسم الطلسم الأعظم في وسط الكنز المسحور، والمطلب المذكور، الذي لا يفتحه إنس ولا جان، إلا بخاتم سليمان، تجده في عين غلام، لم يبلغ السبعة أعوام، مثل شامة سوداء في العين الشمال، وتقرأ عليه الأوراد السبعة، مع عدم ذكر اسم اللّه، ثم تذبحه من الوريد إلى

الوريد، بسكينة لم يدخلها الحديد، فينفتح المطلب، ويحصل الطلب».

وكان الفقي يتنهد كل ليلة عندما يتذكر هذا الموضع، وكان يخبط كفاً بكف، ويكف عن المضغ ثم يدس جسده تحت عباءته الصوفية الملوثة بالعرق ويحلم بالأطفال في جامع الحدادة.

ولكن أحداً من أطفال الجامع لم يكن يحمل في عينه الشمال خاتم سليمان لقد راقبهم الفقي ثلاثين عاماً كاملة، فوجاً بعد فوج، وحدق في عيونهم عن قرب، وفحصهم واحداً بعد الآخر. لعل طفلاً منهم يحمل في عينه الخاتم العظيم. لعل أحداً منهم يفتح باب الجامع ذات يوم ويرى الفقي في عينه الخاتم. لعل أحداً ما في هذه المدينة المغرورة أنجب طفلاً يحمل الخاتم في عينه الشمال.

ولكن ذلك لم يحدث.

وقد ظل الناس المغرورون ينجبون الأطفال، وظل الفقي يعلمهم القرآن ويقلع لهم العين ويكتب لهم أحجبة المحبة ثلاثين عاماً كاملة دون أن يجد بينهم طفلاً واحداً يستحق الذبح فوق باب المطلب المسحور.

ثم جاء الفرج في أعقاب الصبر.

وفتحت باب الجامع ذات يوم امرأة زنجية حافية القدمين تجر وراءها طفلاً زنجياً حافي القدمين، واقتربت من الفقي وقبلت رأسه ويده اليمنى ثم قالت له دون أن ترفع عينيها من الأرض. «هذا ولدي يا سيدي، أريدك أن تعلمه القرآن وسير الرجال الصالحين مقابل أربع بيضات في الأسبوع».

وكان الفقي يكره الزنوج، وكان على وشك أن يطرد تلك المرأة المزرية المظهر عندما رفع رأسه فجأة ورأى الخاتم العظيم يتوهج في عين الغلام مثل ماسة سوداء في عمامة قاضي القضاة. وقد خطر ببال الفقي أن الخاتم قد يكون عديم الجدوى لأنه في عين زنجي، ولأن الكتاب لم يقل شيئاً عن العبيد، لكنه عاد فقرر أن يجرب حظه واشترى للغلام تفاحة بعد صلاة العصر لكي يكسب وده.

* * *

وكسب الفقي ود الطفل الزنجي.

في الخلوة بعد أن يذهب بقية الأطفال، جعله يحضر للبقاء معه يلعب بالقرب منه حتى غروب الشمس وجعل والدة الطفل الزنجية الحافية القدمين تلهج بالثناء عليه في بيوت معظم الجيران.

وفي ذات يوم قال الفقي للغلام: «هل تحب أن ترى بنت سلطان الجان؟»

وقفز قلب الغلام من الفزع وسأل الفقي عما إذا كانت بنت السلطان ليست سيدة شريرة مثل أية سيدة بيضاء، ولكن الفقي طمأنه في الحال وقال له: إنها زنجية جميلة مثل القمر وإنها تخرج من باطن الأرض وترقص مع جواريها الزنجيات على حافة سور المقبرة طوال الليل.

وقفز قلب الغلام من الفرح وسأل الفقي عما إذا كان بوسعه أن يدعو أمه الزنجية الحافية القدمين لكي ترى معه أنه ليس كل الزنوج في مدينة بنغازي يعملون في بيع الحمص المشوي، ولكن الفقي رفع يده في الحال وقال له مغلوباً على أمره إن ذلك مستحيل لأن بنت السلطان لا تظهر أمام أية امرأة تبيع الحمص

ثم طلب منه أن ينسى أمه الزنجية الحافية القدمين ويتسلل من البيت بعد أن تنام ويحضر لمقابلته عند الخربة.

* * *

وقد جاء الغلام في الميعاد.

ووجد الفقي ينتظره فوق بغلة بائع الماء، وعندما سأله عما دعاه إلى سرقة تلك البغلة قال الفقي مغلوباً على أمره إنه لم يسرقها بل وجدها طليقة في الخربة وقرر أن يحتفظ بها حتى يعيدها إلى صاحبها في الصباح. وكان الفقي قد بدأ يضطر إلى الكذب، وكان قد سرق تلك البغلة من بيت بائع الماء بعد أن وجده سكراناً في الشارع ونشل من جيبه المفتاح.

وانطلق الراكبان إلى سور المقبرة.

ووقف الفقي فوق المطلب وطفق يقرأ الأوراد السبعة على رأس الغلام ثم دهنه بزيت الشيح وطرحه على الأرض وربط يديه وراء ظهره وعندما سأله الغلام عما دعاه إلى ذلك قال له الفقي، أيها العبد الصغير لا تضع وقتنا في الثرثرة إن المرء لا يعرف ما الذي يريد الفقي أن يفعله إلا بعد أن يفعله حقاً، فاغمض عينيك الآن ودعني أنهِ مهمتي.

وأغمض الغلام عينيه ثم فتحهما فجأة عندما أحس بحد السكينة البارد يسري في عنقه مثل عرق من الندى الليلي، فيما كان الفقي يجثو فوق باب الكنز وراء سحابة من دخان البخور.

وفي الحال انشق قلب الأرض الذي يشبه قلب البشر.

ثم مدت يدها البيضاء وطفقت تمسح جثة الغلام لكي تهدأ

آلامه، فيما كان الفقي يقفز في غمضة عين داخل المقصورة محاذراً أن يذكر اسم الله.

وقد فتح جميع الصناديق ورأى اللآلىء والجواهر وأواني الذهب والفضة محاذراً أن يذكر اسم اللّه، ثم عاد فأحضر بغلة بائع الماء وطفق يضع فوق ظهرها محتويات الكنز محاذراً أن يذكر اسم اللّه، وعندما لاحت تباشير الفجر في وجه السموات الصامتة كان الفقي ما يزال يضع مزيداً من الأحمال فوق بغلة بائع الماء، وكان الكنز ما يزال مليئاً إلى منتصفه.

ووقف الفقي حائراً في عتمة الفجر، ولوّح بيديه في غضب تجاه السموات ثم لمعت عيناه فجأة مثل حفرتين من النار وأمسك المرآة السحرية بين يديه وصرخ في عجلة:

«أيتها المرآة المباركة، يا بحيرة الخير والنعمة، هذا الفجر الغدار قد لاح وسوف يعقبه الصباح. ويفتضح أمري وأمر الكنز المسحور أمام جميع الخنازير، وهذه البغلة البلهاء لم تعد قادرة على حمل المزيد، فدعيني أكن بغلة في الحال، وضعي فوق ظهري بقية الأحمال».

وفي الحال صار الفقي بغلة كبيرة بيضاء.

وقد رفع عينيه لكي ينظر مرة أخرى إلى تباشير الفجر الباهت ثم لكز بغلة بائع الماء برأسه وانطلق وراءها حاملاً بقية محتويات الكنز بعد أن وضع المرآة السحرية فوق ظهرها لكي تظل في متناول يده.

ومشت البغلتان في ضوء الفجر الباهت.

واجتازتا الغدران والحفر والشوارع الضيقة الشديدة الانحدار ومرتا أمام مجموعة الشحاذين النائمين تحت جدار سيدي

الشريف، واخترقتا السوق إلى الزقاق القائم وراء جامع الحدادة. وكان ضوء الفجر الباهت يسقط في عيني الفقي مثل ألسنة من النار الرمادية، وكان قلبه يقفز من الذعر كلما خيّل إليه أنه سمع وقع خطوات أحد ما، وقد بدأ ينهار تحت ثقل حمله وبدأ العرق ينساب على طول ظهره حتى يقطر من ذيله الطويل ولكنه قرر أن يواصل المشي قائلاً في ذات نفسه:

«الرجال يحتملون أكثر من هذا، ثم إنني لست رجلاً الآن، إنني بغلة عظيمة قادرة».

وكان الفقي ما يزال يحدث نفسه عندما شرع يستدير حول المنعطف النهائي وراء جامع الحدادة، وسمع بوضوح ثمة من يقول بصوت عال «اتفو.. أيتها العاهرة».

وكان ذلك بائع الماء الذي خرج يبحث عن بغلته.

وكان مخموراً وغاضباً وممتلئاً بالحنق، وقد أمسك رأس البغلة وطفق يركلها على بطنها ثم أخذ يجرها في اتجاه بيته دون أن يبدو أنه لاحظ شيئاً مما تحمله فوق ظهرها.

ووقف الفقي محتمياً وراء الجدار حتى سمع بائع الماء يقفل باب بيته ثم أطرق برأسه وأجهش في البكاء.

أيتها المرآة المباركة.. يا بحيرة الخير والنعمة.. خذي هذه البغلة البيضاء، وأعطنا معلم الصبيان..

5

عن العظم وراقد الريح!

يحكى، والله أعلم بغيبه وأحكم، وأعز وأكرم، وألطف وأرحم أن الشيطان كان يقف ذات يوم كعادته أمام بوابة الجحيم ويحصي ضحاياه الجدد الذين وصلوا لتوهم من دار الدنيا. وكان يضحك ملء شدقيه ويهز ذيله القبيح العاري من الشعر صارخاً بأعلى صوته: «هذه حصيلة يوم واحد. انظر هنا يا حارس الجنة، لقد جمعت هذا القطيع كله بنفسي خلال يوم واحد. أنا ألقي شبكتي في دار الدنيا وأعود بها كل يوم مليئة بالخنازير. انظر بنفسك. كل خنزير هنا يساوي ثقله ذهباً، وأنا أشتريه بنصف درهم».

وكان ضحايا الشيطان يبكون من الندم.

وكانوا يصرخون بكل اللغات ويمزقون ثيابهم ويتمرغون على الأرض ويلعنون الشيطان الذي نصب لهم هذا الفخ، ما عدا رجل واحد قصير القامة يلبس طاقية حمراء، كان يقف في مقدمة الطابور واضعاً يديه في جيوبه ويتفرج على الجحيم.

وقد رآه الشيطان على الفور وطفق يراقبه برهة ثم اقترب منه وسأله بسخرية: «قل أيها المواطن. هل أعجبتك الجحيم؟».

ونظر إليه الرجل القصير القامة في هدوء ثم قال له: «لا، إنها لم تعجبني، ابتعد قليلاً يا سيدي. إن رائحتك لا تطاق».

وابتعد الشيطان خطوتين إلى الوراء ثم وضع يده تحت ذقنه وسأله بحيرة: «حسناً إذن أيها المواطن. لماذا لا تتمرغ على الأرض وتمزق ثيابك وتلعنني».

وفي هدوء مدّ الرجل القصير القامة يده إلى طاقيته الحمراء وأخرج من تحتها عقب سيجارة محلية الصنع ثم أشعله من سور الجحيم وقال للشيطان: «لماذا تريدني أن ألعنك يا سيدي ؟ أنت لم تتسبب في ذهابي إلى الجحيم. إن امرأتي وحدها هي التي فعلت ذلك. ولو كان الأمر يخصك وحدك لما كان بوسعك أن تحملني خطوة واحدة إلى أي مكان. أنت مجرد شيطان صغير كريه الرائحة، ولكن امرأتي يا سيدي.. أجل امرأتي التي تتضوع برائحة الحناء والقرنفل» وقاطعه الشيطان بغضب «انتظر أيها المواطن، لا تدعني أحطم رأسك على بعد شبر واحد من الجحيم. إنه ليس ثمة مخلوق آخر في العالم يقود الناس إلى هذا المكان سواي».

وهزّ الرجل القصير القامة رأسه ورمى عقب السيجارة على الأرض ثم قال بهدوء: «أجل. أنت مخلوق مغرور مضحك على الدوام. أنت مستعد لأن تخلد في النار لكي ترضي غرورك القبيح. اسمع يا سيدي الشيطان. إنه لا يهمني أن تصدقني، ولكني سأقول لك إن كل امرأة حافية القدمين في بنغازي قد وضعت في الجحيم أكثر مما وضعته أنت طوال حياتك مرتين على الأقل».

وجلس الشيطان على الأرض من فرط الدهشة ثم شرع يهز رأسه ويردد في ذهول: «هذه مجرد كذبة محلية. ليس ثمة أحد غيري يطعم الجحيم بيديه. أي مخلوق مضحك يضع فوق رأسه طاقية حمراء ويكذب هكذا على باب جهنم يا إلهي. انظر إلى هذا القزم المحشو بالكذب.. إنني أتمنى أن أكسر رأسه مقابل افترائه الأحمق على نساء بنغازي أجل. إن الأمر كله مجرد افتراء».

● ولكن الشيطان لم يحس بالسلام طوال ذلك اليوم، وقد ظل مشغول البال بنساء بنغازي، وظلت الشكوك تراوده حتى نفد صبره في آخر النهار والتقط عكازه وأقفل باب بيته في الجحيم لكي لا يسرق اللصوص قطع الأثاث ثم انطلق يبحث عن مدينة بنغازي مزمعاً أن يكتشف حقيقة الأمر.

وقد وجدها على بعد خمسة أميال من جهنم.

وكانت المدينة مضاءة كالعادة بنور الإيمان وبعض مصابيح الغاز، وكانت تستعد لاستقبال عيد الأضحى المبارك في اليوم التالي، وكان الأهالي يملأون الجوامع والطرقات، والقضاة يجلسون فوق أسقف البيوت ويبحثون عن الهلال، والعجائز تنتقل بين أضرحة الأولياء لإيفاء النذور المتبقية من العيد الماضي.

وقد طار الشيطان فوق مدينة بنغازي قائلاً في ذات نفسه: «هذه المدينة تفوح مثل اسطبل للنعاج، يا إلهي لماذا يضع كل امرىء هنا نعجة في سقيفة بيته؟» ثم وضع يده على أنفه وقرر أن يهبط لكي يكتشف حقيقة الأمر. وكان الشيطان قد جلس على حافة الجدار لتوه عندما وصل الحمّال المدعو «مسعود بن تفاحة» إلى بيته وأدخل حماره في السقيفة ثم تسلل عبر الباب الجواني مطرق الرأس.

وقال الشيطان في ذات نفسه: «هذا الحمّال فقد كيس نقوده. ذلك واضح من مشيته، إنه يكاد أن يموت من الحزن». ولكن الشيطان كان مخطئاً كعادته في التنبؤ بسلوك الناس في بنغازي، وقد مدّ الحمّال يده إلى حذائه وأخرج كيس النقود الملوث بالعرق ووضعه بين يدي زوجته.

وهزّ الشيطان كتفه وتساءل ببله «حسناً إذن.. ماذا دهاه؟» ثم رفع أذنيه الكبيرتين وشرع ينصت فاغراً فمه فقد كانت المرأة تصرخ بملء رئتيها:

«ما هذا يا مسعود بن تفاحة. ماذا تعتقد أنني أستطيع أن أفعل بخمسة دراهم. أنا قلت لك أن تحضر نعجة العيد. هذا ما قلته لك، ولم أطلب منك أن تلقي في وجهي كيسك الملوث بالعرق. اخرج الآن.. أجل الآن.. في هذه الساعة وأحضر نعجة العيد. اتفو، ماذا تعتقد أنك ستفعل هنا؟».

وقال الحمّال مكسور القلب «يا امرأة، لا تبصقي فوق وجهي. ماذا دهاك؟ إنني لا أملك ما أشتري به نعجة العيد». ووقفت المرأة على قدميها وقالت بغضب: «اذهب واسرق واحدة. أجل. اذهب الآن واسرق لنا نعجة. إنني لا أستطيع أن أواجه جيراننا غداً بدون ضحية. تحرك يا مسعود بن تفاحة، اذهب إلى سوق الغنم واسرق نعجة من هناك».

وقال الشيطان في ذات نفسه: «هذا الحمّال لا يستطيع أن يسرق ذبابة. ذلك واضح من سلوكه إنه مجرد مرابط سيىء الحظ».

ولكن الحمّال قال مكسور القلب: «يا امرأة انتظري.. أنا لا أحتاج إلى مشورتك، لقد ذهبت هذا الصباح إلى سوق الغنم

وسرقت نعجة. أجل، لقد فعلت ذلك حقاً، ولكن راقد الريح يلقي العظم في الكرشة.. لقد كانت مجرد كلب مغطى بنطع وضعه اللصوص في السوق».

وضحك الشيطان حتى كاد أن يسقط من فوق الجدار، ولكن المرأة لم تضحك على الاطلاق، لقد أطرقت برأسها برهة، ثم لمعت عيناها فجأة وقالت بصوت منخفض: «اذهب واسرق نعجة جارنا. إنني لا أستطيع أن أحتمل رؤية امرأته العرجاء وهي تركب تلك النعجة العظيمة عبر الصراط فيما أمشي أنا على قدمي أجل. اذهب الآن. هل تريد أن تتركني أضحوكة يوم القيامة يا مسعود بن تفاحة.

وهزّ الحمّال رأسه وقال مكسور القلب: «يا امرأة، أنا لا أريد أن أتركك أضحوكة في أي يوم، ولكن تلك النعجة ليست نعجة على الاطلاق، اسمعي لقد سرقتها أيضاً هذا الصباح واكتشفت أنها مجرد دمية مغطاة بالصوف لخداع الجيران».

وقالت المرأة بغضب:

«ولكنها كانت تثغو طوال النهار، أنا سمعتها بنفسي».

ولوّح الحمّال بيده وقال مكسور القلب: «أجل.. لقد سمعتها أنا أيضاً، ولكن ذلك في الواقع كان جارنا بنفسه الذي وضعته امرأته في السقيفة وجعلته يثغو طوال النهار».

وهزّ الشيطان رأسه بضع مرات وقال في ذات نفسه: «هذه مدينة غريبة حقاً. ما هذا يا إلهي. هل قلت لأهالي بنغازي إن النعجة فداء للإنسان أم الإنسان فداء للنعجة.. وماذا يفعل القاضي في هذه المدينة».

وكان الشيطان على وشك أن يذهب للبحث عن بيت

القاضي عندما سمع المرأة تقول فجأة: «اسمع يا مسعود بن تفاحة. أنت ستذهب في هذه الساعة لكي تسرق كبش القاضي. إنه الإنسان الشريف الوحيد الذي لن يضع دمية تحت النطح لخداع جيرانه.. اسمع، لا تقل لي إن القاضي أيضاً يفعل ذلك».

وهزّ الحمّال كتفه وقال مكسور القلب: «لا، أنا لا أستطيع أن أقول ذلك. إنه في الواقع يملك كبشاً عظيماً بوسعه أن يحملك عبر الصراط عشر مرات، وقد نقلته إلى بيته هذا الصباح بنفسي. أجل إن كبش القاضي ليس دمية وليس كلباً مغطى بنطع.. ولكن اسمعي يا امرأة أنا لا أعرف كيف أدخل بيت القاضي».

وهزّ الشيطان رأسه موافقاً على حافة الجدار وقال في ذات نفسه: «أجل. هذه حقيقة واقعة. إن بيت القاضي يحرسه عادة مائة شرطي» ولكن المرأة أطلقت على الفور ضحكة عالية وخبطت صدرها بيدها ثم قالت بلهجة تقطر حناناً: «هذه مهمتي أنا يا مسعود بن تفاحة. لا تشغل بالك بأمر الدخول إلى بيت القاضي. أنا سأدخلك إليه أمام القاضي نفسه. اسمع، ارقد على الأرض» واتكأ الشيطان على حافة الجدار وطفق يراقب ما تفعله المرأة فاغراً فمه. وقد رآها تطلع من أحد الأكياس جلد نعجة كاملة مزوداً بالرأس والرجلين، ورآها تربط الجلد حول جسد الحمّال وتحشّر رأسه في رأس النعجة وتخيط الثقوب بإحكام ودقة حتى بدا الحمال في لمحة عين مثل نعجة حقيقية، ثم سمعها تقول بمرح:

«تعال إلى المرآة يا زوجي العزيز. تعال وانظر بنفسك. إنك

نعجة كاملة الصفات. أجل. لماذا تعتقد أنك لا تستطيع أن تدخل بيت القاضي. تعال الآن. أنا سوف أجعل القاضي يشتريك بنقوده لكي تسرق كبشه. أجل. من قال لك إن راقد الريح يلقي العظم في الكرشة».

ونهض الشيطان واقفاً على قدميه وطفق يراقب المرأة فيما كانت تلف عباءتها حول جسدها وتجر النعجة وراءها وقد تبعها عبر الأزقة الضيقة والشوارع العريضة، ورآها تمشي مرفوعة الرأس مثل أية سيدة عادية تخرج للنزهة بكلبها وقال الشيطان في ذات نفسه «هذه امرأة مجنونة إن القاضي لن يشتري تلك النعجة، ما دام قد اشترى كبشاً. أجل. ماذا يفعل المرء بضحيتين على أي حال؟».

ولكن الشيطان كان مخطئاً كالعادة في التنبؤ بسلوك الناس في بنغازي، وقد سارع القاضي إلى شراء النعجة في الحال لأن المرأة لم تطلب في مقابلها سوى نصف درهم، ولأن القاضي لا يرفض قط أن يشتري مطية إضافية ما دام يعرف أكثر من سواه صعوبة المشي على الصراط.

وطوال المساء كان الشيطان يجلس على حافة الجدار ويضحك بملء رئتيه.

وكان القاضي لأمر ما قد هجر النوم عينيه وجعل يجلس على بساطه العجمي أمام المربوعة وينصت لكل حركة وراء الباب، وكان الكبش الفظيع الهائل الضخامة يقفز فوق ظهر الحمّال وينطحه بقرونه، وكان الحمال غاضباً إلى حد الحنق وقد شرع يلكم الكبش على رأسه بطريقة غير شائعة بين النعاج، وطفق يلتمس الحماية مستنداً بذيله إلى الجدار، ولكن المخلوق

الأبله المحترق بالشبق عاد يقفز فوق ظهره بعناد لا يبارى واضطر الحمال في لحظة طيش هائلة إلى أن يقف على قدميه ويلكمه على أسنانه.

في تلك اللحظة اعتقد الشيطان أن القاضي قد رأى كل شيء، ولكنه كان مخطئاً لأن الحمال قام بحركته في سرعة خاطفة ولأن القاضي والكبش معاً كانا يديران رأسيهما في اتجاه الباب الذي أصدر لتوّه صوت ثلاث طرقات خفيفة.

ومدّ الشيطان عنقه لكي يرى القادم الجديد ثم سمع صوت امرأة تقول للقاضي بخفوت «هل تأخرت عليك يا فضيلة القاضي؟».

وقبلها القاضي في عنقها ثم قال ضاحكاً: «لست فضيلة القاضي. دعينا من الألقاب قولي لي يا منصور فقط» ومالت المرأة إلى الوراء وعادت تهمس بدلال «هل تأخرت عليك يا منصور؟ أنت تعرف لقد كنت أخاف أن يحضر زوجي على حين غرة. إن أحداً لا يستطيع أن يتنبأ متى يحضر ذلك البغل. ولكنه يبدو أنه اضطر للبقاء في السوق حتى يشتري نعجة العيد».

وقادها القاضي إلى البساط العجمي ثم جلس بجانبها وقال وهو يحك قدمه: «ما اسمك يا سيدة الملاح. أنا لم أر هذا الوجه الحلو من قبل. إن الدلالة لم تصف لي نصف جمالك؟».

ومطت المرأة شفتيها ولوحت بيدها في الهواء ثم أطلقت صرخة عالية على حين غرة.

وكان الكبش واقفاً على قدميه، وكان يهز قرونه ويصرخ بأعلى صوته «أيتها العاهرة.. أيتها المرأة الوضيعة العاهرة. ماذا

تفعلين هنا؟.. أنا سأخنقك بيدي وسوف أخنق هذا القاضي ابن العاهرة اتفو.. أيها الزانيان.. هل خطر ببالكما أنكما تستطيعان أن تخدعاني. لقد أخبرتني الدلالة بكل شيء. أجل. أيها القاضي الخنزير. لقد أخبرتني الدلالة بجميع فضائحك. أنا سوف أخنقك بيدي».

ووضع الشيطان يده على فمه وتجمد من الرعب فيما كان الكبش يطلع من جلده ويضع يديه حول عنق القاضي ثم سمع المرأة تقول بصوت عال «انظر يا زوجي العزيز.. لا تجعل الغضب يعمي بصيرتك اغفر لنا هذه المرة يغفر اللّه لك إننا لن نعود قط إلى هذا العمل المشين» ثم سمع القاضي يقول متضرعاً «أجل يا سيدي لا تجعل الغضب يعمي بصيرتك إننا لم نفعل شيئاً بحقك حتى الآن، فاغفر لنا يغفر اللّه لك».

ولكن الكبش صاح بغضب «اسكت أيها العجوز الزاني. إنك لا تستحق سوى الموت هكذا خنقاً باليدين» ثم طفق يعصر عنق القاضي حتى كاد أن يقصفه فيما صرخت المرأة فجأة «انتظر يا زوجي العزيز. لا تلطخ يديك بدم القاضي. إنه يستطيع أن يشتري نفسه منك بمائة درهم».

وتوقف الكبش عن خنق القاضي فيما أضافت المرأة قائلة «أجل يا زوجي العزيز لا تدع الغضب يعمي بصيرتك إن هذا العجوز البائس يستطيع أن يفدي نفسه منك بمائة درهم، أليس كذلك يا فضيلة القاضي» وهز القاضي رأسه ثم قال بصوت مختنق: «أجل يا سيدتي. ولكني لا أملك درهماً واحداً في البيت لقد دفعت كل ما معي ثمناً لهذه النعجة. انظري بنفسك. إنها تساوي أكثر من مائة درهم».

وهزّ الشيطان رأسه وخبط الجدار بقبضته قائلاً في ذات نفسه «هذه أكذوبة فظيعة. إن القاضي لم يدفع سوى نصف درهم ثمناً للحمال البائس»، فيما توقف الكبش مفكراً برهة ثم قال بغضب «حسناً أيها العجوز الخنزير، أنا سآخذ هذه النعجة مقابل رأسك لأنك في الواقع لا تساوي أكثر من ذلك، أما زوجتي العاهرة فلا بد أن أقتلها بيدي بمجرد أن نعود إلى البيت».

وتحرك الحمال داخل جلد النعجة وعاد إلى الوراء محاولاً أن يحتمي بالجدار فيما كان القاضي يضع الحبل حول عنقه قائلاً بصوت عال «أجل يا سيدي. اقتل زوجتك العاهرة. أعني اقتل من تشاء لقد كانت ليلة عجيبة على أي حال، وكما قيل منذ سالف الأمد راقد الريح يلقي العظم في الكرشة».

وفي عتمة الليل الخريفي البارد مشى الشيطان وراء النعجة ومشت النعجة وراء الكبش ومشى الكبش وراء امرأته التي كانت تقول له من تحت عباءتها: «يا زوجي العزيز ألم أقل لك إنني أستطيع أن أدخلك إلى بيت القاضي أمام القاضي نفسه. يا زوجي العزيز ألم أقل لك إنني أستطيع أن أخرجك منه أمام القاضي نفسه أيضاً، يا زوجي العزيز، من قال لك إن راقد الريح يلقي العظم في الكرشة».

في صباح اليوم التالي كان الشيطان يقف كعادته أمام بوابة الجحيم ويحصي ضحاياه الذين وصلوا لتوهم من دار الدنيا. ولكنه لم يكن يضحك ملء شدقيه، ولم يكن يهز ذيله القبيح العاري من الشعر لقد ظل جالساً على الأرض واضعاً يده تحت ذقنه، وظل يراقب الحمال الذي وقف صامتاً في مقدمة الطابور ووضع يديه في جيوبه وشرع يتفرج على الجحيم.

6

عن غلطة جحا!

قيل، واللّه أعلم بما يقال في هذه المدينة الطويلة اللسان، إن جحا الشرق لما ضحك على ذقون أهل بغداد، ونال منهم غاية المراد، وباع لهم الطين بدل العسل، وغشهم في العطر بماء البصل، أدركه ـ عفاكم اللّه ـ الزهو والغرور، وظن في نفسه أنه بلغ غاية الشطارة، وأن أحداً لا يغلبه في الدهاء والمهارة حتى أنه ـ لما سمع بما يحكى عن جحا الغرب في حي المغاربة ـ طلّق زوجاته الأربع، وركب بغلته البيضاء بدون برذعة، وانطلق يبحث عنه لكي يضحك على ذقنه.

وقد وجده ـ بلا مشقة ـ يبيع المصاحف ويضرب الرمل على باب سوق الظلام.

ووقف يتأمله فاغراً فمه ثم بصق على الأرض وطفق يضحك ـ من فرط خيبة أمله ـ حتى استلقى على قفاه، فقد كان جحا الغرب مجرد فقي، وكان يفوح برائحة المضغة والقهوة التركية مثل بقية الفقهاء الذين تركهم جحا وراءه في بغداد، وكان

يجلس بجانب رقعة الرمل ويعبث في أنفه بأصبعه. وقد أطلع رأسه من تحت عباءته عندما سمع ضحكات جحا، وعقد حاجبيه القبيحين مثل كلب يتشمم دمية قطة، ثم قال له: «تفضل يا سيدي، أقرأ لك بختك، أو امش من هنا. إنني لست أضحوكة لك».

ولكن جحا ـ الذي غرّه ـ عفاكم اللّه ـ الشيطان اللعين وزيّن له أن يعبث بذلك الفقي المسكين، ويتركه أضحوكة بين المواطنين، لمجرد أنه سمع عنه بعض الحكايات في حي المغاربة، ترجل عن بغلته، وقبّل رأسه ويده اليسرى لأن يده الأخرى كانت ما تزال في منخره ـ ثم قال له:

«يا جناب الحكيم، والفقي العظيم، أنا تاجر من بغداد، دار الخلافة والرشاد، تركت ورائي قافلتي في وسط البيد يقودها الخصيان والعبيد، وسبقتها إلى هنا لكي أتعرف على حال التجارة، والربح والخسارة، وقد طال بي المقام، واعترتني الهواجس والأوهام لأنني قضيت في هذه المدينة شهراً بالتمام والكمال، ولم تصل القافلة ولا الرجال، فأريدك أن تضرب الرمل وتقرأ الفنجان، وتستدعي صديقك الشيطان، لكي يعرف لي ماذا حدث لقافلتي».

وكان جحا الشرق الفصيح اللسان يتحدث بصوت هادىء يخلب اللب على عادة أهل بغداد، حتى أن الفقي الذي لم يسمع طوال حياته سوى لهجة أهل بنغازي ـ نسي في غمرة ذهوله ـ أن يطالبه بالبيوض، ونزع أصبعه من منخره طائعاً وانطلق يبحث عن القافلة في رقعة الرمل. وقد طال صمته وهو يرسم الخطوط ويحدق فيها حتى تدمع عيناه ثم يمسحها بمؤخرة

يده ويرسم خطوطاً أخرى ويحك ظهره دون أن ينطق بكلمة حتى بدأ جحا يحس بالغضب وانطلق يحك ظهره بدوره قائلاً في ذات نفسه: «انظر يا إلهي إلى هذا القرد. إنه يريد أن يقنعني بأنه لا يستطيع أن يرى جملاً كاملاً في رقعة الرمل لأول وهلة. انظر إليه يا إلهي. إن القافلة ستطلع من بين أصابعه في نهاية المطاف. أنا أعرف ذلك، وأنت تعرفه أيضاً، فلماذا لا تترك الجدار ينهار فوق رأسه. لماذا لا تتركه يختنق تحته كالجرذ مقابل حماقته. أنت تعرف يا إلهي أنني لا أملك قافلة على الإطلاق».

وقد رفع جحا رأسه فجأة ونظر إلى الجدار عندما سمع صوت الفقي متوقعاً أن يراه ينهار فوق رأسه مرة واحدة. ولكن الجدار بقي في مكانه لأن الفقي لم يقل شيئاً مما توقعه جحا.

لقد انحنى إلى الأمام وأطلع رأسه من تحت عباءته مبدياً تجاعيد عنقه المتسخة بالعرق ثم قال بهدوء:

«ثلاثة جمال. أرى ثلاثة جمال، تحمل الأحمال، يتقدمها جمل أبيض كأنه جبل من الثلج رغاؤه يملأ الصحراء، ويصل إلى عنان السماء».

وقاطعه جحا متظاهراً بالدهشة «ثلاثة جمال، أيها الحكيم ليست كافية. إن قافلتي تضم مائة جمل محمل ببضائع الهند والسند. انظر جيداً فلعل صديقك الشيطان قد ظنني تاجراً آخر..

ولا تنس أيضاً أن تبحث عن العبيد».

وقال الفقي بإصرار: «ثلاثة جمال فقط، ما أراه أقوله، وهو عين الحق. إنني يا سيدي لا أرى سوى ثلاثة جمال بدون عبيد».

ودفن جحا وجهه بين يديه وقال في ذات نفسه «انظر يا

إلهي إلى هذا القرد. إنه لا يريد أن يعطيني سوى ثلاثة جمال كأنه سوف يتبرع لي بها من مخزنه.. انظر إليه يا إلهي. إنه يكذب ثم يبخل بكذبه أيضاً. ألا يدعوك ذلك إلى أن تترك الجدار يسقط فوق رأسه؟».

وظن الفقي أن جحا يوشك أن يبكي على ضياع قافلته، فسارع إلى إعطائه قطعة من المضغة لكي يطيب خاطره، ثم قال له بود «فداك يا سيدي مال الدنيا. إنه مجرد متاع غرور. والعاقل من قنع بما قسم اللّه».

وسأله جحا متظاهراً بالغضب «ماذا تعني أيها الحكيم؟ هل ضاعت القافلة كلها وضاع العبيد؟».

فهز الفقي رأسه وقال بهدوء يثير السخط «فداك يا سيدي مال الدنيا. إن عبيدك قتلهم قطاع الطرق وقد رأيت لتوي جثثهم في الرمال. ولكنك ما تزال تملك ثلاثة جمال، وسوف تصل غداً يتقدمها جمل أبيض مثل جبل من الثلج. إن ما أراه أقوله وهو عين الحق».

● وكاد جحا يوشك أن يلطمه على أنفه من الغضب ويفضحه أمام أصحاب سوق الظلام، عندما خطرت بباله إحدى أفكاره الشريرة فجأة، وطفق يلطم وجهه متظاهراً بالجزع لما أصاب قافلته، ثم مزق ثيابه وقال باكياً «ثلاثة جمال يا إلهي. هل تترك لي ثلاثة جمال فقط هل أنا شحاذ. إنني لن آخذها. أنا أقسم لك أنني لن آخذها. فأنا لا أريد أن أصبح أضحوكة بين تجار بنغازي الذين سوف يموتون بالضحك عندما يرون جحا يأتي من بغداد وليس معه سوى ثلاثة جمال. أنا أقسم لك أنني لن آخذها». ووضع الفقي يده على كتفه وأعطاه قطعة أخرى

من المضغة لكي يطيب خاطره، ولكن جحا تجنب قطعة المضغة متظاهراً بالحزن ثم رمى عمامته على الأرض وقال بصوت عال «ثلاثة جمال يا إلهي. أنا أقسم لك أنني لن آخذها. أجل. سأعطيها لهذا الحكيم الطيب. أجل يا إلهي. هذا ما سوف أفعله بالثلاثة جمال. إنني سأعطيها له مقابل البيوض».

وقاطعه الفقي متسائلاً بدهشة «تعطيها لي؟ لماذا يا سيدي؟ إن البيوض دينار واحد فقط، وأنا لا أستطيع أن آخذ جمالك مقابل دينار. إن ذلك شيء يشبه السرقة. فإذا كنت لا تملك البيوض الآن، فسوف أنتظرك حتى تصل جمالك غداً وتبيع بضاعتك. أجل يا سيدي؟ إنني أستطيع أن أنتظرك كما تشاء، ولكنني لن آخذ جمالك». وقال له جحا «يا سيدي الحكيم. ألم تقل لي إن الجمال ستصل غداً؟».

وهز له الفقي رأسه موافقاً، فقال له وهو يلوح بذراعيه في الهواء «وأنا أريد أن أعطيها لك.. إنها هدية مني إليك. أليس المرء حراً في ماله؟ إنني أريدك أن تذهب غداً إلى باب المدينة وتستقبل تلك الجمال وتحملها إلى بيتك فهي حلال عليك مثل حليب أمك».

ورفع الفقي رأسه لكي يعترض مرة أخرى ولكن جحا لم يترك له فرصة الاعتراض، وقد أقسم عليه بالطلاق أن يأخذها، ثم ركب بغلته الشهباء، وانطلق يركض مبتعداً قائلاً في ذات نفسه «هل رأيت هذا القرد يا إلهي. إنه يعطيني ثلاثة جمال ثم يرفض أن يشتريها مني مقابل دينار واحد. أليس ذلك غاية الأمانة. فدعه يذهب غداً لكي يستقبلها عند باب المدينة. أجل يا إلهي دع ذلك الفقي الأبله يذهب غداً إلى باب المدينة ويأخذ

أول ثلاثة جمال يصادفها لكي يكسر صاحبها رأسه».

وقد ضحك جحا حتى كاد أن يسقط من فوق بغلته الشهباء عندما خطر له أن الفقي قد يذهب حقاً لاستقبال الجمال غداً، ويتورط في السرقة، ويحمله الأهالي إلى الوالي لكي يقطع يده. ولكن جحا الذي أدركه ـ عفاكم اللّه ـ الزهو والغرور، صحا في اليوم التالي، وأخرج رأسه من نافذة اللوكاندة ورأى الفقي يجر الجمال الثلاثة المحملة بصناديق الذهب والحرير الهندي ويربطها عند المدخل ثم يقف تحت النافذة ويصرخ بملء صوته: «هذه جمالك يا سيدي التاجر الغريب. انزل لتحصي أحمالها بنفسك».

وسقط قلب جحا من الحيرة، وعاد متسللاً إلى سريره ودفن وجهه في الوسادة محاولاً أن يحل ذلك اللغز، فقد كان يعرف أنه لا يملك قافلة على الإطلاق، وأن اللعبة بأسرها مجرد كذبة من جانبه. وقد فكر في الأمر ملياً، وأدمى أنفه من القرص لكي يعرف أنه لا يحلم، ثم قال في ذات نفسه «أنا لا أملك قافلة إن ذلك الفقي المعتوه قد سرق الجمال من أحد ما، وسوف تكتشف الشرطة أمره في الحال. أجل لقد سرقها. وعلي أن أنتظر حتى يصل رجال الشرطة لكي يقطعوا يده أمام عيني».

ولكن أحداً لن يصل على أي حال.

وقد انتظر جحا حتى الظهر مصراً على عدم الخروج من غرفته رغم طرقات الباب المتوالية، وتسلل بضع مرات لكي يطل من النافذة متوقعاً أن يرى الشرطة يقطعون يد الفقي في وسط الشارع، ولكنه لم ير أحداً سوى الفقي الطيب القلب يجلس في صبر بجانب الجمال ويحرسها من النشالين.

● وانتظر جحا حتى العصر، وراودته الشكوك من كل جانب، وبدأ يقول لنفسه إن الفقي إذا لم يسرق تلك الجمال فلا بد أنه وجدها حقاً بدون حارس عند باب المدينة. ثم قال جحا لنفسه إن المرء لا يجوز أن يقعده الخوف عن الظفر بالغنيمة، وإن ذلك الفقي المعتوه لا يستحق أن ينال ثلاثة جمال محملة بالذهب والحرير الهندي إذا كان اللّه قد أرسلها إلى جحا لكي يكافئه على شطارته.

● وعند المغرب كان جحا مستعداً لمغادرة غرفته وقد هبط بحذر متناه وتسلل إلى الخارج على أطراف أصابعه دون أن يراه أحد ثم وقف عند ناصية الشارع المظلم وطفق يراقب الفقي والجمال قائلاً في ذات نفسه «المرء لا بد أن يلزم جانب الحيطة. إن السماء في بنغازي لا تمطر جمالاً محملة بالصناديق. هذا أمر واضح. وإذا كان اللّه قد أرسل ثلاثة جمال إلى جحا لكي يكافئه على شطارته، فإن جحا بدوره سوف ينتظر حتى يصلي العشاء على الأقل من باب الحذر».

وقد ذهب جحا وصلى العشاء والتراويح ثم عاد إلى ناصية الشارع ووجد الفقي والجمال في انتظاره وكان ذلك في الواقع أبعد ما يستطيع أن يمضي، فالحذر إذا زاد عن حده، انقلب إلى ضده، كما تعلم جحا من التجربة، ثم إن المرء لا يرفس النعمة برجليه إذا جاءته النعمة إلى باب اللوكاندة راكبة فوق ثلاثة جمال. وقد رفع جحا رأسه وأخرج مسبحته القديمة وانطلق عبر المدخل متظاهراً بأنه لم ير شيئاً حتى لاقاه الفقي وصاحب اللوكاندة معاً وأخذاه بالأحضان وبشّراه بوصول القافلة.

ومسح جحا أنفه بيده التي تحمل المسبحة لكي يراها الفقي

وصاحب اللوكاندة وبقية الرواد، ثم قال بصوت واهن، متناسياً صراخه عند باب سوق الظلام، «من مائة جمل لا تصلني سوى ثلاثة جمال. لولا مخافة اللّه أن يحسبني كافراً بقضائه لما أخذتها. ولكن الحمد للّه على أي حال، هو الذي أعطى وهو الذي أخذ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه».

وقد تعجب الفقي وصاحب اللوكاندة وبقية الرواد من تقوى جحا، ولكن الفقي وحده تعجب أكثر لأن جحا الورع أعطاه خمسة دنانير كاملة مقابل البشارة ثم أعطاه أيضاً عمامة من الحرير، وقد انحنى الفقي البائس فقبّل يد جحا ودعا له بطول العمر ورفع يده إلى السماء وشرع يدعو اللّه لكي يحفظه ذخراً للفقراء ويغطي رأسه في الجنة بعمامة سماوية. ولكن جحا لم ينصت إلى دعوات الفقي لأنه كان في عجلة من أمره، وقد انطلق على الفور إلى سوق التجار، وأدركه قبل أن يغلق أبوابه وباع بضاعته بأول سعر وجده أمامه، ثم جمع نقوده في كيس كبير، وخبأه على شاطىء البحر من باب الحيطة على عادة الشطار في بغداد ثم عاد إلى اللوكاندة وجمع حاجياته منتظراً طلوع الصباح.

وكان جحا ما يزال يحاول أن يغالب الضحك من فرط بلاهة جحا الغرب، الذي لا يجد شيئاً يفعله سوى أن يضرب الرمل ويطلع منه الجمال المسحورة أمام باب سوق الظلام. وكان قد بدأ يتذكر القصص الخرافية التي سمعها عنه في حي المغاربة بمدينة بغداد، عندما دوت الطرقات فوق باب غرفته فجأة ثم رأى الفقي لابساً ـ عمامته الجديدة ـ يدخل في صحبة عشرة من الشرطة.

● وقد فرك جحا عينيه لكي يطرد ذلك الشبح المزعج، ولكن الفقي كان حقيقة واقعة، وكان يقف عند رأسه ويشير إليه بأصبعه ويقول للشرطة: «هذا هو التاجر الغريب أنا أستطيع أن أميّزه من ألف تاجر. إنه هو بعينه. ما أراه أقوله وهو عين الحق. لقد جاءني أمس وطلب مني أن أضرب الرمل لكي أخبره عن قافلته. هذا عين الحق. وعندما أخبرته أن قافلته هاجمها قطاع الطرق ولم ينج منها سوى ثلاثة جمال شرع يلطم وجهه ويمزق لحيته ثم طلب مني أن آخذ الجمال الباقية مقابل البيوض، ولكنني لم أفعل ذلك مخافة اللّه.

وقد ذهبت هذا الصباح إلى باب المدينة ووجدت الجمال وأحضرتها له إلى هنا. إنه هو بعينه. فإذا كانت تلك الجمال قد ضاعت منكم، فقد أخذها هذا التاجر الغريب. ما أراه أقوله وهو عين الحق. إنه رجل طيب القلب وقد أعطاني خمسة دنانير وهذه العمامة، ولكنه إذا كان قد سرق جمالكم، فأنا أقول لكم إنكم لا بد أن تقطعوا يده وتصلبوه على بغلته عارياً في السوق. إنه لا شأن لي بهذا الأمر سوى البشارة وحدها، فلولا أنني أخبرتكم بمكانه لأفلت من أيديكم وعاد إلى بغداد». وفرك جحا عينيه لكي يطرد ذلك الشبح المزعج ولكن الفقي كان حقيقة واقعة، وكان ما يزال يقف عند رأسه ويشير إليه بأصبعه ويقول بصوت عال «إنه هو بعينه ما أراه أقوله وهو عين الحق. فإذا كان قطاع الطرق قد هاجموا قافلة تاجر آخر، ولم يتركوا منها سوى ثلاثة جمال، فإن هذا الرجل قد زعم أنها جماله. أنا حملتها إليه بنفسي ورأيته يذهب بها إلى السوق».

ودار رأس جحا من فرط المفاجأة ثم اعتراه الرعب حتى

جحظت عيناه وأحس بسقف الغرفة يجثم على صدره، ولكنه لم يفقد قدرته الخارقة على إيجاد منفذ للهرب مهما ضيقت الدنيا عليه الخناق. وقد عاد فتمالك نفسه ثم نهض واقفاً فوق سريره وخلع قميصه وفتح ذراعيه صارخاً بأعلى صوته: «جمهروش.. صديقي جمهروش.... ماذا تفعل هنا في بلاد الأنس. وما الذي تقوله عن الجمال. ألم تسمع من معلمنا الأكبر أن الجن لا يجوز لهم أن ينطقوا اسم الجمل لأنه يحمل الانس إلى مكة».

وأجفل الشرطة وتراجعوا إلى وسط الغرفة شاهرين سيوفهم، ورآهم جحا بطرف عينه وطفق يحس بالندم على فعلته، لكنه عاد فتمالك نفسه عندما سمع الفقي يقول ببلاهة «لا حول ولا قوة إلا باللّه. لقد مسّه هذا الخنزير الأسود. أنا كنت أعرف ذلك منذ أن رأيته يتبعه عند باب سوق الظلام. إنه جان من السودان مثل جذع نخلة سوداء، وقد كان يتبعه كظله، ولكني لم أعرف أنه يضمر له سوءاً».

وتنفس جحا الصعداء وقال في ذات نفسه «هذا الفقي المبارك يستطيع أن يطلع ثلاثة جمال من الرمل، ويستطيع أيضاً أن يطلعني أنا من بنغازي إذا عرفت كيف أخدعه. إن الأمر لا يتطلب شيئاً سوى قليل من الصراخ» وقد عاد جحا فرفع يديه فوق رأسه وصرخ بأعلى صوته «صديقي جمهروش. لماذا تقول إنني خنزير أسود؟ هل تعتقد أنك أفضل مني. انظر إلى خلقتك الفظيعة، وانظر إلى ذيلك الذي يشبه ذيل الحمار. إنك أنت أيضاً لست فاتن الملامح».

وفي هدوء قال الفقي مرة أخرى «لا حول ولا قوة إلا باللّه

لقد مسّه هذا الخنزير الأسود اربطوا يديه وراء ظهره، وامسكوه بينكم ريثما أقرأ عليه بعض الأوراد».

وكان جحا مستعداً لاحتمال هذه اللعبة المهينة ما دام ذلك ينقذه من قطع يده وحرقها في الزيت المغلي.

وقد استسلم على الفور بعد محاولة قصيرة للصراع قائلاً في ذات نفسه: «دعه يقرأ بعض الأوراد. دعه يقرأ ما يشاء. إن الجن السوداني لن يطلع من جسدي إلا إذا طلعت أنا من بنغازي. هذا عين الحق. فالمرء لا يحتاج إلى عقله لكي يفقد يده بسيف الوالي».

ولكن جحا ـ فيما يبدو ـ لم يكن ملماً بعادات طرد الجن في مدينة بنغازي. وقد أدهشه أن يرى أن الفقي ربط سلسلة في عنقه، ثم ربط سلسلة أخرى في يديه، وأحكم وثاقه بطريقة تدعو إلى الظن بأن أهل بنغازي لا يثقون في جان السودان قيد أنملة ثم جحظت عينا جحا من الرعب عندما أطلع الفقي سوطه وطفق يلهب ظهره بلا رحمة. وعض جحا الوسادة بأسنانه وقرر أن يحتمل لذعات السوط قائلاً في ذات نفسه «هذا أفضل من قطع اليد. إنه سوط فظيع أسود ولكنه أفضل من قطع اليد. ثم إن الوالي لن يقطع يدي فحسب بل سيصلبني عارياً فوق البغلة الشهباء ويفضحني أمام أهالي المدينة. إن السوط يمكن احتماله».

وعند الفجر كان الفقي ما يزال يلهب ظهر جحا، وكان الشرطة قد تعبوا من الانتظار وتمددوا على أرض الغرفة واستغرقوا في النوم. وكان جحا البائس يرفع رأسه بوهن ويشير إلى الفقي لكي يقترب منه. وقد بلل يديه بدموعه ثم قال له محاذراً أن يسمعه الشرطة «أنا أعترف لك أنك غلبتني. دعنا نقتسم الغنيمة

بيننا. إنني لم أنفق منها ديناراً واحداً. لقد خبأت الكيس بأكمله على شاطئ البحر».

ولأول مرة منذ التقيا عند باب سوق الظلام ابتسم جحا الغرب وأبدى أسنانه الصفراء القبيحة التي ضاعت هدراً بفعل المضغة والقهوة التركية ثم وضع سوطه جانباً وقال بهدوء «أيها الجني الخبيث أنا لا أفهم ما تعنيه ولا أريد أن أفهمه أيضاً. أيها الجني الخبيث، إن كل ما أطلبه منك هو أن تترك هذا التاجر الغريب وشأنه. وإذا كان السوط وحده لا يستطيع أن يقنعك، فأنا ما زلت أنوي أن أكويك في رأسك».

وهتف جحا مفجوعاً «ماذا دهاك يا سيدي الحكيم، ولماذا تزمع أن تكويني في رأسي. أنا أقول لك خذ الكيس المشؤوم بأسره، ولكن دع رأسي وشأنه. فأنا لم أعد أرغب في الضحك على ذقنك أو ذقن أحد في مدينتكم العامرة. دعني أعد إلى بغداد هذا كل ما أريده من الدنيا. ألا تصدقني يا سيدي الحكيم؟ وقال الفقي بإصرار «أنا أصدقك أيها الجني الخبيث».

وخبط جحا رأسه على الجدار من فرط اليأس ثم قال باكياً «ماذا دهاك يا سيدي أي جني تعني. إني أنا التاجر بنفسه. اسمع. ماذا تريدني أن أفعل لكي تصدق أنني لست الجني؟ هل أذكر لك مكان الكيس؟ هل أقرأ لك سورة البقرة؟ هل تصدقني عندئذٍ؟

وقد قرأ جحا بعض ما تيسر من سورة البقرة ثم بدأ يصف مكان الكيس. ولقد أنصت إليه الفقي بانتباه شديد، ورأى بنفسه أن جحا لم يرتكب خطأً واحداً في القراءة، وأن وصفه لمخبأ الكيس لا يدل على الجنون بأي حال، ولكن الفقي العجيب ـ

رغم ذلك كله ـ لم يبد عليه أنه يريد أن يصدق كلمة مما يقول جحا. وقد اكتفى بأن هز له كتفه ببلاهة ثم عاد يحرق جلده بالسوط حتى استيقظ الشرطة فجأة وسألوا الفقي عما يريد منهم أن يفعلوا بجحا.

«ضعوه في سجن الوالي» قال الفقي بأعلى صوته «اربطوه من عنقه بسلسلة، ودقوا السلسلة في الجدار بوتد من الحديد. ولا تقربوه للماء لأنه عندئذٍ يموت، ولا تقربوه للضوء، لأنه عندئذٍ يموت. واقرأوا على رأسه الأوراد، وادعوا رب العباد، لكي يفرج كربته ويشفيه من علّته حتى يستطيع الوالي أن يقطع يده ويقليها في الزيت الحامي ثم يصلبه على بغلته الشهباء.

ودفن جحا رأسه بين يديه وقال في ذات نفسه «الحمد للّه على أي حال. لقد نسي أن يعطيني قطعة المضغة».

7

عن قوت العيال!

.... ثم كان يا ما كان

وكان رواد المقهى في الفندق القديم قد أنهوا ثلاثة أجزاء من سيرة الهلالية، ووقفوا مع ناقة أبي زيد تحت سور القيروان. وكان الزناتي خليفة قد خرج في الليلة الماضية لمصارعة مرعي بن جازية، وأمسكه من بيضاته وألقاه على الأرض ثم ربط قدميه بعمامته وطفق يجره بصدر حصانه مثل كيس محشو بالقش. وكان رواد المقهى ما يزالون يتحدثون بازدراء عن تلك الخدعة المشينة من جانب الزناتي خليفة، عندما وصل إلى المقهى شحاذ أعمى يدب على عكاز حديدي، واختار مكانه في الركن، ووضع جرابه المعبأ بكسر الخبز الجافة إلى جانبه على الأرض ثم رفع رأسه وتساءل بصوت عال: ماذا حدث لمرعي؟

ونظر إليه صاحب المقهى فاغراً فمه ثم هزّ رأسه وقال له على مسمع من الرواد: اخرج من هنا. ما هذا؟ هل تعتقد أنني أفتح تكية للشحاذين. دعنا نكسب قوت عيالنا..

وفي هدوء مفاجىء قال الشحاذ: أجل يا سيدي.. كل امرىء لا بد أن يكسب قوت عياله. أنا أعرف أنك لا تفتح تكية للشحاذين.. هذا ثمن قهوتي ولا تنس أن تضع مزيداً من السكر، ولكن ماذا حدث لمرعي؟.

ورفع قارىء سيرة الهلالية رأسه فيما كان يرتشف قهوته بجانب الوجاق وتبادل النظرات مع صاحب المقهى ثم قال بصوت عال: أسره الزناتي. هذا ما حدث لمرعي لقد أمسكه من مكان ضيق وألقاه على الأرض. أنت تعرف من أين أمسكه. وإن المرء ليخجل من طريقة الزناتي خليفة في القتال.

وضحك الشحاذ فجأة وقال وهو يحرك جفون عينيه المغلقتين: لماذا يخجل المرء من طريقة الزناتي في القتال؟ أنت مخطئ يا سيدي إن الحرب خدعة، أليس كذلك؟

وفيما كان صاحب المقهى يعمل مطرق الرأس بجانب الوجاق سمع أحد الرواد يقول بغضب هذه ليست خدعة أيها الشحاذ إن المرء لا يمسك خصمه من ذلك المكان الضيق إلا إذا كان خائفاً من الصراع. والزناتي خليفة كان خائفاً من مرعي. أجل... إنه دائماً يلجأ إلى حيل الجبناء.

ورفع الشحاذ كلتا يديه في الهواء وقال ببطء: لا يا سيدي. أين سمعت هذه الأكاذيب؟.. إن الزناتي ليس خائفاً من مرعي. هذا مجرد افتراء محض. الزناتي يا سيدي يدافع عن تونس فقط. إنه لا يريد أن يتبارى في الفروسية مع مرعي أو غيره إنه يدافع عن عياله.. هل سمعت ما قلته لك؟. والمرء لا يفعل ذلك طبقاً لقواعد الفروسية وحدها.. أنت مخطىء يا سيدي.. إن المرء عندما يقف للدفاع عن عياله ضد اللصوص وقطّاع الطرق

يمسكهم من أي مكان ويعضهم أيضاً بأسنانه.. اسمع.. أليس مرعي مجرد قاطع طريق؟ أعني أليسوا جميعاً أولئك الهلالية الجياع مجرد قطاع طرق، وكذلك العبد السحار المدعو «أبو زيد»؟.. أجل يا سيدي أليس أبو زيد مجرد قاطع طريق..

وفجأة استشعر الشحاذ الأعمى أن الصمت المطبق بدأ يخيم على المقهى.

واستدار ببطء مشرئباً بعنقه المجعد فيما بدأ صاحب المقهى يحك ظهره واستدارت رؤوس الرواد مرة واحدة في اتجاه الزنجي المديد القامة الذي كان يحتل مقعده في وسط الحلقة عاقداً ذراعيه العظيمتين على صدره مثل حزمة من الحبال الزيتية السوداء.

كان الرواد يعرفونه عن كثب.

وكانوا يتناقلون أخباره في جميع المقاهي التي تقام بها حلقات لقراءة سيرة الهلالية. وقد شاع عن ذلك الزنجي أنه يستطيع أن يقاتل خمسة رجال مرة واحدة ويدق عظامهم جميعاً إذا أثاروا غضبه بكلمة ما ضد أبي زيد الهلالي، وشاع عنه أيضاً أنه خنق أحد قراء السيرة ذات مرة حتى كسر عنقه لأنه أصرّ على إيقاف القراءة قبل أن يطلع أبو زيد من السجن.

كان الزنجي من أنصار أبي زيد.

وكان يرتاد كل المقاهي التي تقرأ بها السيرة، ويجلس صامتاً فاغراً فمه، عاقداً ذراعيه العظيمتين على صدره، حتى يبدأ أبو زيد في المصارعة. عندئذٍ كان الزنجي يفتح ذراعيه ويتكىء إلى الأمام لكي لا تفوته كلمة واحدة، ثم يعود فيستند إلى الجدار ويقول بصوته العميق النبرات «سوف يسحقه بين يديه.. سوف

يكسر عظامه.. انتظروا.. إنه سيمزقه مثل خرقة بالية». وكان أبو زيد يقهر خصومه على الدوام.

وكان الزنجي يفرد ذراعيه إذ ذاك ويضحك حتى يتمايل جذعه العظيم في وسط الحلقة ثم يقول بصوته العميق النبرات «أنا قلت لكم.. ليس ثمة من يدانيه.. هذا فارس الهلالية بنفسه.. انتظروا لتروا ماذا سيفعل للزناتي خليفة ـ ثم يعقد ذراعيه العظيمين فوق صدره ويستند إلى الجدار ليقول بازدراء ـ أجل الزناتي خليفة ذلك الخنزير الجبان الذي لا يؤمن جانبه».

● في تلك الليلة أيضاً في مقهى الفندق القديم قال الزنجي للشحاذ «الزناتي خليفة خنزير جبان لا يؤمن جانبه.. الزناتي خليفة ـ أيها الشحاذ ـ مجرد كلب أحمق مثلك».

وفتح الشحاذ فمه مدهوشاً ثم التصق بالجدار وقال ببطء «هذا الكلام أخرق. ما الذي يدعوك إلى شتمي يا سيدي. إنني لم أقل في حقك كلمة واحدة».

وقاطعه الزنجي بغضب.. «أيها الشحاذ. أنت لم تقل في حقي كلمة واحدة؟ وما الذي كنت تقوله إذن عن أبي زيد قاطع الطريق؟».

وفي هدوء رفع الشحاذ رأسه وقال من أقصى الركن «أبو زيد قاطع طريق. أجل لقد قلت ذلك، ولكنك لست أبا زيد.. هل أنت أبو زيد يا سيدي؟».

وضحك رواد المقهى، وغادر قارىء الهلالية مكانه بجانب الوجاق وشرع يبحث عن كتاب السيرة فوق الرف عندما رفع الزنجي صوته فجأة وقال بنزق «أنا أبو زيد بنفسه أيها الشحاذ.

أجل لا تصدقني.. إنني أستطيع أن أجعلك تراني بعيني رأسك المغلقتين..».

وأطلق الشحاذ ضحكة عالية ثم انتصب على ركبتيه وقال متسائلاً «كيف تفعل يا سيدي؟ إن اللّه قد خلقني أعمى. انظر بنفسك إذا شئت. إنك لا تستطيع أن تجعلني أراك بأي حال.. ولكنك إذا كنت تعني أنك ستضربني فدعني أحذرك من تصديق الخرافات. إن أبا زيد أيضاً يمكن أن يسقط على الأرض».

وفي اللحظة التالية كان الزنجي يقفز مثل النمر الهائج ويطلق ذراعه العظيمة في الهواء لكي تسقط بإحكام مذهل على خد الشحاذ الأيسر. وقد جعله يطير في اتجاه الباب مثل صرة من الثياب المهلهلة ثم ألقاه فاقداً وعيه فوق العتبة. وكان الشحاذ قد سمع ذراع الزنجي تهوي عبر الهدوء المخيم على المقهى مثل عاصفة مختنقة في السحاب، وخيل إليه أنه رأى ضوءاً حقيقياً ناصعاً أمام عينيه المغلقتين ثم وصلته الصفعة الثقيلة المكتومة واستشعر في حلقه طعم الدم فيما بدأ رأسه يسقط بهدوء على عتبة الباب.

وفي غمضة عين انتهى كل شيء وعاد الزنجي الغاضب إلى مكانه وعقد ذراعيه العظيمتين فوق صدره ثم قال بصوته العميق النبرات (لا حول ولا قوة إلاّ باللّه العلي العظيم) فيما انحنى أحد الرواد فوق جثة الشحاذ وجرّه داخل المقهى، ثم غسل فمه من الدم وقال له بصوت غير مسموع: «ما الذي يدعوك إلى مضايقة الناس؟ اشرب قهوتك وانصرف هات يدك، هذا فنجان القهوة ما الذي يدعوك إلى مضايقة الناس يا سيدي؟».

وفي هدوء لفت انتباه جميع رواد المقهى قال الشحاذ وهو يتحسس فمه «أنا لم أضايق أحداً. إن ذلك الرجل كان يريد أن يصفعني منذ البداية. أجل يا سيدي. لقد عرفت ذلك من لهجته. إن أبا زيد لا بد أن يصفع أحداً ما لكي يعرف الناس أنه أبو زيد.. أجل. هذه بداية سيرة الهلالية أيضاً، ولكن المرء لا يجوز أن يظهر له خوفه. إن ذلك يجعله بطلاً حقيقياً».

ولوّح الزنجي بيديه في الهواء وطفق يهز رأسه في يأس فيما أشار له صاحب المقهى واضعاً اصبعه على فمه ثم قال مخاطباً قارىء سيرة الهلالية:

«دعنا نبدأ. إننا لا نريد أن نفقد المساء في الشجار. اقترب هنا، وخبّرنا عن أبي زيد. أما ذلك الشحاذ فسوف أضطر إلى إلقائه في الشارع بنفسي إذا لم يلتزم الصمت».

وقال الشحاذ من أقصى الركن «أنا لا أكلم نفسي يا سيدي. إنني لا أنطق بكلمة واحدة إلا إذا خاطبني أحد ما هل تعتقد أنني أكلم نفسي؟».

ولكن صاحب المقهى لم يجبه. لقد اكتفى بالنظر إلى بقية الرواد ثم أخذ مكانه في طرف الحلقة فيما رفع قارىء الهلالية صوته وانطلق يقرأ بنغمة متكلفة دون أن ينزع قطعة المضغة من فمه. وكان أبو زيد قد لبس عدة الحرب واستل سيفه الهندي من غمده وانطلق يذرع ميدان المعركة مطالباً بمبارزة الزناتي خليفة، وكان قد قتل عشرة من فرسان تونس الذين تقدموا لفداء الزناتي، عندما رفع الزنجي صوته وقال بغضب:

«هذا الخنزير الجبان لن يخرج بنفسه قط. إنه يبقى وراء الأسوار ويرسل جنوده التعساء. انظروا. إنه لن يخرج طوال هذه

الليلة».. وقد توقف قارىء الهلالية ريثما أنهى الزنجي كلامه وأومأ برأسه موافقاً، لكنه لم يتوقف عندما صرخ الشحاذ معقباً من أقصى الركن «الزناتي ليس خنزيراً جباناً. الزناتي يدافع عن قوت عياله، وليس من شأنه أن يخرج لقتال قطاع الطرق».

ورمقه الزنجي بنظرة جانبية تطفح بالغضب لكنه لم يكن يملك من الوقت ما يضيعه في الشجار مع الشحاذ، فقد كان أبو زيد قد وضع رمحه اليماني بين أذني فرسه وانطلق كالإعصار ليخترق فرقة الجنود التي خرجت لقتاله من القلعة، وقد حمل على الميمنة حتى أزاحها من مكانها ثم انفلت عبر القلب وطفق يحصد رؤوس الجنود التعساء حتى أبادهم جميعاً، فيما كان رواد المقهى يهزون رؤوسهم في ذهول. وكان أبو زيد قد وقف عند سور القلعة وصرخ في طلب الزناتي خليفة عندما قال الزنجي فجأة «اخرج أيها الكلب الجبان هذا فارس الحجاز الذي سمعت عنه. البس كل الدروع التي في حوزتك واخرج إليه لكي يسقيك الموت بيده».

وقال له الشحاذ من أقصى الركن «.. الموت ليس عاراً يا سيدي.. الزناتي يموت من أجل عياله، ولكن من أجل من يموت أبو زيد؟».

ورمقه الزنجي بنظرة جانبية تتوقد بالغضب، لكنه لم يجد فسحة من الوقت لكي يقول له شيئاً فقد كان الزناتي خليفة قد ظهر عند باب القلعة على حصانه الأبيض وسط زغاريد النساء وانطلق يجر رمحه العظيم في اتجاه أبي زيد تاركاً وراءه خطاً عميقاً يشبه خط المحراث. وتحرك الزنجي في مقعده ثم اتكأ إلى الأمام وقال بذهول: «اقتله. مزق رأسه بسنانك. تونس كلها بين

يديك يا فارس الحجاز. تونس الخضراء المتكبرة ستركع الآن لكي تقبل ركابك الفضي..».

ورفع الشحاذ صوته وقال من أقصى الركن: «تونس لا تركع لكي تقبل ركاب أحد. إن الذي يدافع عن قوت عياله يقف اللّه نفسه بجانبه وقاطع الطريق هو قاطع الطريق».

والتفت رواد المقهى مرة واحدة فيما كان الزنجي يصرخ بحنق مخاطباً الشحاذ «أيها الرجل الدرويش. أيها المخلوق المنتن. أنا بريء منك إلى اللّه إنني سأكسر رأسك».

ونهض صاحب المقهى متباطئاً لكي يطرده فيما كان قارىء الهلالية يبحث بيأس عن السطر الذي أضاعه، ولكن الشحاذ رفع رأسه فجأة وقال مرة أخرى «الزناتي يدافع عن قوت عياله. وقاطع الطريق هو قاطع الطريق». وفي اللحظة التالية كان قارىء الهلالية قد وجد السطر الضائع ثم فقده على الفور عندما مرقت أمام عينيه سحابة سوداء هائلة الضخامة ورأى الزنجي ينطلق مثل حزمة من الرماح السوداء وينغرس مرة واحدة في جسد الشحاذ المتكور في الركن. وكان الشحاذ قد سمع صوت جسده العظيم يمر في الهواء المشبع برائحة العرق وسمعه يصرخ بأعلى صوته ثم أحس بيده تسقط مثل مقصلة من السماء فوق خده الأيمن وأحس برأسه يدور في سرعة خارقة، ومدّ يده في الظلام المليء بمواشير الضوء الملونة واستشعر في مثل الحلم أن يده قد ضاعت تحت ثياب الزنجي إلى الأبد ثم عاد فأحس بها تقبض فجأة على المكان الذي يبحث عنه وجذب نفساً عميقاً وطفق يعصر بيضاته بجنون وكان الزنجي ما يزال منحنياً فوقه مثل كتلة صلدة من جبل أسود عندما قال الشحاذ فجأة بصوت سمعه بقية الرواد

«قاطع الطريق يركع على ركبتيه في نهاية المطاف. قاطع الطريق لا بد أن يركع على ركبتيه في نهاية المطاف حتى إذا كان كتلة صلدة من الجبل الأسود..».

وفي اللحظة التالية رفع الزنجي يده وطفق يدق بها على ظهر الشحاذ الأعمى مثل مطرقة من الفولاذ الملتهب ثم وضع يده الأخرى حول عنقه وبدأ يخنقه، وعندما اتكأ الشحاذ بثقله على يده المدفونة في ثياب الزنجي رأى رواد المقهى وجهه المهشم المغطى بالدماء وسمعوه يقول مرة أخرى بصوت واضح: «قاطع الطريق لا بد أن يركع على ركبتيه في نهاية المطاف».

وفجأة تأخر الزنجي خطوة إلى الوراء ثم استدار برأسه في اتجاه رواد المقهى وقال بألم: «إنه يكاد يقتلني. يا إلهي انزعوا يده». وعندما زحف الشحاذ بين قدميه وعاد يتكيء بثقله على يده المدفونة تحت ثيابه بذل الزنجي محاولة قصيرة للخلاص من قبضته ثم قال مرة أخرى: «انزعوا يده. إنه يكاد أن يقتلني. يا إلهي، انزعوا يده».

وفي اللحظة التالية وضع الشحاذ يده الأخرى تحت ثياب الزنجي واتكأ عليها بثقله، فيما انحنى الزنجي بألم قاهر حتى لامس الأرض مطلقاً صرخة مدوية ثم أحس بشيء ما ينكسر في أمعائه وفتح فمه على اتساعه طلباً للهواء ثم عاد فأغلقه وابتلع ريقه بصوت مسموع رافعاً يديه إلى جانبه. وكان الزنجي يمتد على أرض المقهى مثل جذع نخلة قديمة عندما زحف الشحاذ حوله ببطء وتسلق صدره متلمساً طريقه بيده ثم قال بصوت جاف: «قليل من الماء. أنا أحس بالظمأ. هل عندكم قليل من الماء؟».

في اليوم التالي تجمع الرواد في مقهى الفندق القديم. وأضيء قنديل الزيت، وعقد الزنجي ذراعيه العظيمتين فوق صدره واستند على الجدار فيما كان صاحب المقهى يعمل مطرق الرأس بجانب وجاق النار.

وكان الزناتي خليفة قد ظهر لتوه عند باب القلعة على حصانه الأبيض وسط زغاريد النساء وانطلق يجر رمحه العظيم في اتجاه أبي زيد تاركاً وراءه خطاً عميقاً يشبه خط المحراث.

مكتبة النيهوم

سلسلة القصص:(1)

الصادق النيهوم كان كاتباً غير عادي، وقد أثارت كتاباته، طيلة حياته، - وربما ما تزال في تقديرنا - أصداء ستتردد لفترة طويلة. وإحساساً بقيمة هذا الكاتب وعطائه الغزير. بادرت (دار تالة) إلى تجميع نتاج النيهوم المتناثر في عديد الصحف والدوريات، سواء في ليبيا أو خارجها. مما لم يسبق إصداره، بعد الاتفاق مع ورثته، ونشره في سلاسل تحوي أعماله كافة ورأت أن تطلق عليها اسم (مكتبة النيهوم)

من قصص الأطفال

. . ثم كان يا ما كان .

وكان في مدينة بنغازي زنجي عظيم طويل القامة يطوف الأزقة بأكياس الملح ، ويضع الأحياء القديمة كل يوم وراء حماره المحمل أصبعه في أذنه ، وينادي بصوته الجهوري ملح . . ملح .

وكان الناس في بنغازي يدعونه «عبد الملح» ، وكان الأطفال يرهبون رؤيته ويلاحقونه بعيونهم في صمت عندما يلوح بقامته المديدة ويخترق الأزقة متمايلاً وراء حماره مثل نخلة هائلة الارتفاع والرسوخ ، ولكن الزنجي كان يحب الأطفال ، وكان يطلع لهم لسانه الشديد الحمرة ويصدر به صوتاً يشبه نقيق الضفدعة حتى يغرق الأطفال في الضحك .



التوزيع الحصري خارج الجماهيرية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
ص .ب . 113/5752 ر .ب . 2070 1103 ـ بيروت ـ لبنان
Email: arabdiffusion@hotmail.com